نخبة الأزهار
وروضة الأفكار

للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز
رحمه الله تعالى

تحقيق
خادم العلم
عبد الله ابراهيم الأنصاري

١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م

طبع على نفقة

حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

تصـــدير للطبعـــة الأولى

بقلم الدكتور السيد محمد بدوي

هذه نظرات في الدين والأخلاق نقدمها لشبـــاب هذا الجيل ، الذين لم تتح لهم فرصة الاستمتاع بها مذاعـــة على الأثير ، فمن حق الشباب علينا – وهم ذخيرة الوطن وأمله – أن نزوّدهم بهذه المختارات الفريدة التي تقوي في أنفسهم الإيمـــان ، وتدعم في ضميرهم أسس الأخلاق ، وتشحذ إرادتهم للقيام بجلائل الأعمال .

ومن أجدر بأن نأخذ عنه هذه الدروس الممتعة ، والأفكار الحية النابضة والمثل العليا الخالدة ، من أستاذ جليل من السلف الصالح ، كرّس حياته للدرس والتدريس ، وجمع في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا ، واستطاع أن يجمع هذه العلوم والمعارف في ذهنه الجبار وعقله المتفتح المستنير ، ويخرجها لنا مصفاة من الشوائب ، محلاة بذلك الأسلوب الرصين الذي يبرز الفكرة في سهولة ويسر ، فتأخذ طريقها إلى العقول والأفئدة .

ذلكم هو العـــالم الجليل المرحوم الدكتور **محمـــد عبد الله دراز** ، عضو جماعة كبار العلماء ، آتاه الله تعالى الحظ الأوفر في علوم الإســـلام ؛ فكان فيها العلم الذي يشار إليه وأوتي مثل هذا الحظ من علم أوربا ، ولكن لم يبهره زخرف المدنية الغربية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية .

ولد – عليه رحمة الله – في قرية « محـــلة دياي » بمحافظة كفر الشيخ في عام ١٨٩٤ وانتسب إلى معهد الاسكندرية الديني في عام ١٩٠٥ ، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢ ، وعلى شهادة العالمية في عام ١٩١٦ ثم تعلم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص ، ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حباً في المظهر ، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع . فكان إبان ثورة ١٩١٩ يطوف مع الشبـــاب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده ، كما كان يدافع عن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة « الطان » الفرنسية .

وفي عام ١٩٢٨ ، اختير للتدريس بالقسم العـــالي بالأزهر ، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩ ، ثم بكلية أصول الدين عام ١٩٣٠ .

وفي عام ١٩٣٦ ، سافر إلى فرنسا في بعثة أزهرية ، واشتغل للتحضير لدرجـة الدكتوراه فكتب رسالتين عن « التعريف بالقرآن » وعن « الأخلاق في القرآن » نال بهما دكتوراه الدولة من السوربون بمرتبة الشرف الممتازة في عام ١٩٤٧ .

وعلى أثر عودته إلى الوطن انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجـامعة القاهرة وحصل على عضوية جماعـة كبار العلماء في عام ١٩٤٩ ، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم واللغة العربية بالأزهر . وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية .

وفي عام ١٩٥٣ ، اختير عضواً في اللجنة العليا لسياسة التعليم ، كما اختير عضواً في المجلس الأعلى للإذاعة . وفي اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر . إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلا لمصر والأزهر .

وكانت آخر رحلة له ، رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة «لاهور» في يناير عام ١٩٥٨ ، وقد ألقى هناك بحثاً عن « موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها » . ثم وافاه الأجل المحتوم في أثناء انعقاد المؤتمر . ففقد العالم الإسلامي بوفاته مثلا فاضلا للعالم الأزهري ، الغيور على دينه ، المحافظ على كرامته ، المتصوّن في مظهره وسمعته ، الداعي إلى صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد عرف عنه — رحمه الله — أنه كان يقرأ كل يوم سدس القرآن ، وما ترك هذه العادة يوماً واحداً حتى في إبان محنة الحرب التي عاصرها في فرنسا وما كنت تراه إذا اختلى بنفسه إلا مصلياً أو قارئاً للقرآن .

وإذا كانت إقامته الطويلة في الخارج قد مكنته من علوم الغرب ومعارفه ومناهج البحث العلمي ، فإنها مع ذلك لم تصرفه لحظة واحدة عن دينه وإيمانه ولم تغير من خلقه ، بل قد ازداد استمساكاً بدينه وتشدداً فيه ، فزاد بذلك وقاراً وجلالا .

ومن آثاره الدينية والفلسفية :

النبأ العظيم ، وهو نظرات جديدة في القرآن .

والمختار في الحديث .

ونظرات في الإسلام .

والصوم .

والمسئولية في الإسلام.

وكلمات في مبادئ الفلسفة والأخلاق .

وتفسير بعض سور وأجزاء من القرآن الكريم .

وكتاب **الدين** ، وهو بحوث تمهيدية في نشأة الأديان .

ومن بحوثه باللغتين العربية والفرنسية :

مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام .

والربا في نظر القانون الإسلامي .

والأزهر الجامعة القديمة والحديثة .

أما الأحاديث التي نقدمها في هذا الكتاب فهي مختارة من سلسلة أحاديث إذاعية كان يلقيها الأستاذ في فترات منتظمة في المدة من عام ١٩٥٣ — ١٩٥٧ . ومن هذه الأحاديث ما يتصل بتفسير حكمة الشريعة والأهداف الخلقيـة والاجتماعية الكامنة وراء فرض شعائر الصـوم والزكاة والحج ، ومنها ما يتصل بشرح آداب القرآن في المعاملات ، وتحديد أساليب السلوك القويم الذي يجعل ممن يستمسك به إنساناً كاملا يحقق الخير لنفسه ولوطنه ، كما أن من هذه الأحاديث ما كتب في أثناء الاعتداء الثلاثي الغاشم على الوطن في عام ١٩٥٦ ، وقد أراد بها الأستاذ استفزاز الرأي العام ضد هذا العدوان الأثيم ، واستنفـار الهمم لكي تستبسل في الدفاع عن الحق والعدالة وتعبئة جنود العرب تعبئة روحية بالإيمان والتقوى والصلاح والإصلاح ، إلى جانب تعبئتهم المادية بالزاد والعتاد والركاب والسلاح .

وقد آثرنا أن نقدم هذه الأحاديث في صورتها الأصلية ، دون أن نحـاول أي تعديل فيها سواء بالإدماج أو الربط ، مما قد يستلزمه طبع كتاب متكامل الفصول ، وذلك لما وجدناه من أن ذلك أدعى إلى الاحتفاظ بأصالتها ، والحفاظ على رونقها .

ونرجو أن تحظى عند القارئ في أقطار العالم العربي والإسلامي بما هي جديرة به من حسن الاستيعاب وعمق التأمل .

والله نسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه نصرة الحق وإعلاء شأن الإسلام .

٢٩ من ذي القعدة سنة ١٣٨٤ هـ.

٣١ من مارس عام ١٩٦٥ م.

السيد محمد بدوي

أستاذ علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على جزيل نعمائه ، وعظيم آلائه ، سبحانك ربي لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وصلاة ربي وعظيم تسليماته على الهادي الأمين ، المبعوث من ربه رحمة للعالمين ، الذي قد حمل الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمّة ، وقادها إلى خيري الدنيا والآخرة .

صلى الله عليه وعلى آله ، وصحابته من المهاجرين والأنصار ، الذين كانوا له نعم العون في مدلهمات الأمور ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة ، توفيق منه سبحانه لا يؤتيه إلا لصفوة مختارة من أولئك الدعاة المخلصين ، الذين تجرّدوا للإرشاد والدعوة ونذروا أنفسهم لهما طائعين راضين اقتناعاً منهم بأن هذا هو الجهاد الذي هيأهم الله إليه . فأقبلوا بقلوبهم وألسنتهم ينادون في الناس : أن يا قومنا أجيبوا داعي الله لما دعاكم . فالتف الناس حولهم ، يغترفون من المنهل العذب بحب وشغف « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (١) .

ومن هؤلاء الدعاة الموفقين الدكتور **محمد عبد الله دراز** – رحمه الله تعالى – الذي كان علماً شامخاً من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر . خلال القرن الرابع عشر الهجري .

– ولد – رحمه الله تعالى – في قرية صغيرة تدعى « محلة دياي » من أعمال محافظة كفر الشيخ عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) في بيت علم ودين . واتصف في حياته بالفطنة والذكاء والتواضع والجرأة ومحبة الناس .

---

(١) سورة فصلت : ٣٣ .

- حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين .
- التحق بالمعهد الديني بمدينة الاسكندرية .
- حصل على شهادة العالمية عام ١٣٣٤ هـ – ١٩١٦ م .
- عين مدرساً – عقب تخرجه – بمعهد الاسكندرية الديني .
- درس اللغة الفرنسية في المدارس الليلية ونبغ فيها ، وكان أول الناجحين في شهادة القسم العالي منها .
- اختير للتدريس بالقسم العربي بالأزهر الشريف ، ثم بقسم التخصص ، ثم بالكليات الأزهرية.
- صنف كتابه « المختار » سنة ١٣٥٠ هـ – ١٩٣٢ م .
- أشرف على طباعة شرح والده لكتاب « الموافقات للشاطبي » .
- اختير مبعوثاً من الأزهر إلى جامعة السوربون في باريس ، فأمضى هناك اثني عشر عـاماً حاز فيها على شهادة الليسانس ، ثم الدكتوراة . وكانت له رسالتان ، الأولى بعنوان : « القرآن » وهي باللغة الفرنسية ، لم تترجم إلى العربية بعد .

أما الرسالة الثانية ، فقد ترجمها المؤلف في كتابه **النبأ العظيم** تحت عنوان : « **دستور الأخلاق في القرآن** ، أما الترجمة الحرفية لها فهي : « أخلاق القرآن » .

- عاد بعد ذلك إلى مصر ، واعتلى منابرها في التوجيه والإرشاد الديني ، والتدريس في مختلف الجامعات والكليات ، فكان بحق علماً عظيماً في كل الوظائف التي أنيطت به .

ولا يسعني تفصيل ذلك الآن ، فلست بالمؤرخ لهذا الداعية العظيم . بقدر ما يهمني إظهار ناحية خافية من نواحي حياته العلمية ، وترجمته كاملة موجودة بكتابه : **المختار من كنوز السنة النبوية** الذي طبع على نفقة **سمو أمير دولة قطر** حفظه الله ورعاه .

إن الناحية التي تهمنا هي مجالسه الخاصة ، التي كان يؤمهـا القوم من طلاب العلم والمعرفة فيتحدث فيهم ويوجههم وينصحهم ويعلمهم .

وشاء الله – جلت قدرته – أن يهيء لنا الأسباب للاطلاع على أثر جليل من آثاره ، هو كتاب : **في الدين والأخلاق** . قامت وزارة الثقافة المصرية بجمعه وطبعه ، منذ أكثر من اثني عشر عاماً . اختياراً من سلسلة أحاديث إذاعية للمرحوم الشيخ **محمد عبد الله دراز** .

ونظراً لما لاحظناه من كثرة الأخطاء الواردة ، وخاصة المطبعية . . وتعميماً للفائدة بين المسلمين ، فقد قمنا بتنقيح هذه الأحاديث ، وإعادة تبويبها ومراجعتها بدقة ، ومقارنتها بما وصلنا من أشرطة تسجيل ، قـام بإرسالها لنا الأخ الدكتور **محمد سعيد دراز** – نجل المرحوم الشيخ **محمد عبد الله دراز** – جزاه الله عنا وعن المسلمين كل خير . وأثابه عن عمله واهتمامه الموفقين جزيل الأجر . واخترنا لها هذا العنوان ، الذي لا شك أن روح قائلها ستأنس به وترضى عنه ، وهو :

« نخبـة الأزهار وروضـة الأفكار »

وقد قمنا بعرض هذا الموضوع من جوانبه العلميـة والأدبية والدينية والتاريخيـة على صاحب السمو الشيخ **خليفـة بن حمد آل ثاني** أمير دولة قطر . فكان كما عهدناه دائماً نصيراً للعلم والمعرفة ، إذ أمر سموه – حفظه الله – بأن يطبع على نفقته الخاصة . فكان هـذا السفر الجليل الفائدة ، الذي بين يديك أيهـا القارئ الكريم ، مثالا للإخلاص في العلم والعمل به ، ونبراساً يهتدي به الدعاة إلى الله ، وتخليداً لذكرى داعية مخلص ؛ كان يدعو إلى الله على بصيرة فوفقه الله ، وكان له تلاميذ مخلصون حملوا هذا العلم بعده ، ونقلوه إلى طالبي العلم والمعرفة ؛ زاداً ممتعاً ، وغذاءً ثميناً نافعاً ، فكان هذا الكتاب – من توفيق الله وعنايته – الذي قدرنا الله على إبرازه إلى حيز الوجود ، للإفادة منه وإحياء ذكرى مؤلفه – رحمه الله وجزاه عن علمه ونصحه خير ما يجزى به الدعاة المخلصون – وأشركنا معه في صالح الجزاء ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم ، وسار على سننهم إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين .

خادم العلم
عبد الله ابراهيم الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات فى فاتحة الكتاب الحكيم

- ١ -

« الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِراطَ الَّذِينَ أَنْعمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ » .

وصلى الله على خير خلقه ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : فإن خير ما تفتتح به الأعمال ، وخير ما تستنجح به المقاصد هو التوجه إلى الله العليّ القدير ، ثناءً عليه بما هو أهله ، واستمداداً للمعونة من قوته ، واستلهاماً للرشد من هدايته ، وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة : « الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » – ثناءٌ على الله ، « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » – استعانة بالله . . « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » – استرشاد بنور الله .

عند هذه النظرة العابرة يقف أكثر الذين يتلون هذه السورة ، أو الذين يستمعون إليها ، ولعل كثيراً منهم لا يدركون من تسميتها إلا أنها تحل المكان الأول في صدر المصحف .

ولكن هلم بنا نلق على هذه السورة الكريمة نظرتين أُخريين ؛ نظرة في موادها ومقاصدها ، مقارنة بمواد القرآن ومقاصده ، ونظرة في وجهة خطابها ، مقارنة بوجهة الخطاب القرآني . فسنجد لها بذلك شأناً أهم وأعظم.

ولنبدأ بالنظر في إحصاء المقاصد الكلية للقرآن الكريم ، وفي مدى احتواء الفاتحة على هذه المقاصد :

الشئون التي تناولها القرآن – على تنوّعها وكثرتها – نستطيع أن نجملها في أربعة مقاصد ، هي في الحقيقة ، كل مطلب الدين والفلسفة والأخلاق :

مقصدان نظريان ؛ هما معرفة الحق ، ومعرفة الخير .

ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان إذا قدر لهما أن تثمرا . فثمرة معرفة الحق هي : تقديس الحق واعتناقه . وثمرة معرفة الخير هي : فعل الخير والتزامه .

المقصد النظري الأساسي للقرآن الحكيم ، هو تعريفنا بالحقيقة العليا صعوداً بها إليها على معراج الحقائق الأخرى ؛ فهو يعرّفنا بالله وصفاته عن طريق توجيه أنظارنا إلى آياته في ملكوت السموات والأرض ، وفي خلق الإنسان والحيوان والنبات ، وفي سير الشمس والقمر والنجوم ، وفي تكوين السحاب ، وفي تسخير الطير ، وفي تصريف الرياح ، وفي ظاهرتي الحياة والموت ، وفي سائر الظواهر النفسية والكونية ، الخارجة عن إرادتنا

وعن إرادة الكائنات كلها ، والتي لا يستطيع العقل السليم أن يفسر وجودها ، ولا بقاءها ، ولا تناسقها وتماسكها ووحدة نظامها ، إلا بوجود قوة عاقلة قديرة مدبّرة حكيمة ، تقبض على زمام الأمر كله ، وتوجه العالم كله على هذا النحو الموحّد المعين المختلف المؤتلف ، دون ملايين الملايين من الأوضاع الممكنة ، التي كانت لا بد أن تتناوب الكون في كل لحظة ، لو ترك أمره لمحض المصادفة والاتفاق ، أو لو ترك أمره لقوة عمياء صماء طائشة لا عقل لها ، أو لقوة مخربة مدمرة باطشة لا رحمة لها ، أو لقوة عابثة لاهية لاعبة لا هدف لها .

والقرآن ، حين يرينا صنع الله في ملكوته ، لا يقف بنا عند هذه اللوحة العالمية في صورتها الحاضرة ، ولكنه يوجه نظرنا إلى طرفي الزمان الكوني ، فيطل بنا على صورة العالم في ماضيه وفي مستقبله ، وفي بدايته وفي نهايته ، كما يوجه نظرنا إلى طرفي الزمان الإنساني ؛ فيرينا صورة من صنع الله في الأفراد والأمم ؛ في ماضيها وفي مستقبلها القريب والبعيد وفي إسعادها وإشقائها ، وفي إبقائها وإفنائها ، وفي مثوبتها وعقوبتها . هذه النظرة الشاملة إلى صنع الله في الأنفس والآفاق ، هذه المعرفة بالله في مظهري عدله وفضله ، في صفتي جلاله وجماله ، إذا وقعت موقعها من النفس ، تقاضتها حتماً أن تتخذ لها موقفاً عملياً تجاه هذه الحقيقة المقدسة العليا ؛ وما ذلك إلا موقف التوقير والخشوع أمام هـذا العدل والجلال ، وموقف الولاء والحب أمام هذا الفضل والجمال . فمن عرف

الله خشعت له نفسه ، واطمأن له قلبه ، وذلك هو روح العبادة وجوهرها ؛ فهي الخشوع التام عن طوع واختيار ، وعن رضا ومحبة .

هكذا إذن كان الأصل النظري الأول ، هو معـرفة الله . فالأصل العملي الأول الذي يثمره هذا الأصل هو توقير الله . ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهي بعنصريه : النظري والعملي ، والقرآن يفصله تفصيلاً ، وسورة الفاتحة تجمله إجمالاً في شطرها الأول : « الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » . هذه هي المعرفة الأساسية : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » . هذا هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة .

وقبل أن ننتقل إلى الجانب الإنساني الذي يتناوله الشطر الآخر من السورة ، يجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذه الحبات الذرية ، التي يتألف منها هذا الجناح الأول من السورة ، فتتمتع عقولنا وقلوبنا بتذوق معانيها ، واجتلاء جمال مواقعها . ولنبدأ بهذه الصفات الحسنى :

« رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » .

شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة ، في ترتيب بالغ الغاية في الإبداع والإحكام ؛ المبدأ ، فالوسطي ، فالمعاد ؛ التوحيد فالنبوة ، فالجزاء . « رَبِّ الْعَالَمِينَ » ليس إله قبيلة أو شعب . . ليس إله خير أو شر . . أو نور أو ظلام فحسب ، ولكنه رب كل شيء ، بارئه

ومصوره ، منقله في أطواره ، مبلغه غايته ، ممده بحاجاته ، مبتليه أو معافيه . . . وبالجملة ، مربيه بأنواع التربية الظاهرة والباطنة .

هذا هو التوحيد الخالص ، وهذا هو ركن المبدإ . « الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » . ليس رحماناً رحيماً فحسب ، ولكن هو الرحمن الرحيم . ليس واحداً من جملة الراحمين ، ولكنه هو المصدر الوحيد للرحمة . ثم ليس ذا رحمة واحدة ، ولكنهما رحمتان مفسرتان في القرآن : رحمة وسعت كل شيء ورحمة يختص بها من يشاء . رحمة وسعت كل شيء ، ووسعت الإنسانية جميعها ، لا أقول وسعتها بنعمة الوجود والحياة والرزق المادي فحسب ولا أقول وسعتها بنعمة الهداية الفطرية وكفى ، ولكن بنعمة الهداية السماوية نفسها ، وذلك بإرسال الرسل إلى كل الأمم : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ »[١] ، « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »[٢] .

هذه هي الرحمة الأولى ، الرحمة الأساسية العامة التي هو بها رحمان ممتلئ الخزائن بالرحمة ، باسط اليدين بالنعمة : « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[٣] .

ورحمة أخرى خصوصية إضافية نافلة علاوة ، يمنحها من يستحقها تلك هي رحمة الاصطفاء والاجتباء ، والقيادة والإمامة ، والتوفيق والرشاد والمزيد من الفضل : « اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ »[٤] .

(١) سورة النحل : ٣٦ . (٢) سورة فاطر : ٢٤ . (٣) سورة إبراهيم : ٣٤ .
(٤) سورة الحج : ٧٥ .

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ »[1] . « اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ »[2] . « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »[3] . « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ »[4] . « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ »[5] . وهذه هي الرحمة التي هو بها رحيم .

على هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات ، فهو رحمة عامة للمرسل إليهم ، ورحمة خاصة للمرسلين ومن اهتدى بهديهم ، وهذا هو الوسط بين المبدإ والمعاد .

وللحديث بقية في شرح هذه الآيات . والله المستعان .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٤ . (٢) سورة الشورى : ١٣ . (٣) سورة محمد : ١٧ .
(٤) سورة فاطر : ١ . (٥) سورة الشورى : ١٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

بقيـــة نظرات فى فاتحـــة الكتاب الحكيم

— ٢ —

« الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ » .

وصلى الله على خير خلقه ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : نتابع معاً ما بدأناه في حديثنا السابق عن سورة الفاتحة :

« مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » : إليه وحده ترجع الأُمور ، وبيده تقرير المصير الأخير ؛ يقف الخلق جميعاً بين يديه مسئولين ، فيدينهم ويجزيهم بما كانوا يعملون . وهذا هو الركن الثالث والأَخير : ركن المعاد والجزاء .

عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ومواقعها فيما بينها ، فلننظر إلى مواقعها مما حولها ، لنرى كيف وقعت بين قضيتين : « الْحَمْدُ لِلهِ » و « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » . فكانت تأْييداً لما قبلها ، تمهيداً لما بعدها . فمنزلتها من قضية الحمد منزلة البرهان من الدعوى . ومنزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة .

وفي الحق أنه إذا كان الله وحده هو الذي كل شيء من خلقه ، وهو الذي كفل كل شيء وتعهده بالإمداد آناً فآناً حتى أبلغه مداه . وإذا كان هو وحده الذي يملك خزائن الرحمة والنعمة كلها ، وهو الذي ينفق منها وهو الذي يضاعفها لمن يشاء ، وإذا كان هو وحده الذي بيده فصل القضاء وتقرير المصير .. فأي أحد أو شيء أحق منه بنعوت الجمال والجلال ؟!. بل أي أحد أو شيء غيره يستحق هذا الثناء والإجلال ؟!. الحمد كله حق مستحق خالصاً ومخلصاً لله. تلك إذن قضية معها برهانها .

هذا البرهان الاستقرائي الذي يستقصي مظاهر العظمة والرحمة كلها في الأزمنة الثلاثة – الماضي والحاضر والمستقبل – فيحصرها في يد الله هو في الوقت نفسه قوة دافعة تأخذ بأقطار نفسك وتوجهك إلى غاية عملية معينة . فإن نظرة إلى ماضيك – وقد أتى عليك حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ فتعهدك الخلاق في مختلف أطوارك حتى بلغت أشدك وأصبحت سميعاً بصيراً ، خصيماً مبيناً ، مستأهلاً لخلافة الأرض – لا بد أن تتقاضاك حق الاعتراف له بالفضل والجميل ، قياماً بواجب الوفاء . ونظرة إلى حاضرك وإلى مستقبلك القريب – وأنت تتقلب كل آن في رحمته ، وتطمع كل آن في المزيد من نعمته – لا شك تثير فيك نحوه باعثة الحب والرجاء . ونظرة إلى مستقبلك البعيد – وأنت واقف أمامه في ساحة القضاء ، وقد علق مصيرك في كفتي ميزانه – لا بد أن تنفث في روعك مزيجاً من الرغبة والرهبة والاستحياء .

ماذا يكون موقفك إذن من هذه الحقيقة المحيطة الغامرة ، التي كلما التفتَّ إلى أمسك أو إلى يومك أو إلى غدك ، لم تر إلا يد جلالها أو يد جمالها ؟ .

النتيجة الطبيعية – التي لا تستطيع دفعها عن نفسك بعد هذه المقدمات الثلاث – هي أن يضمحل في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة ، وظواهر زائلة ، وأن ترتفع بهامتك فوق العالم كله ، وأن تتحول كل رغبتك إلى هذا المنبع الأول والوحيد لكل قوة ورحمة . وهنالك لا يسعك إلا أن ينطلق لسانك في حب خاشع قائلاً : أيها الحق الجامع المانع ، كلي لك كلي ؛ لك صلاتي ونسكي ، ولك محياي ومماتي إياك أعبد ، ولك وحدك أركع وأسجد .

على أنك لو كنت أوسع أفقاً ، وأيقظ قلباً ، لوجدت نفسك لست وحيداً في هذا الموقف ، ولرأيت العالم كله حولك راكعاً ساجداً أمام هذه العظمة الباهرة . لا تقل إذن : إياك أعبد ، ولكن قل : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » . وهذه هي النتيجة الحقيقية التي أعلنها القرآن الحكيم : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ؛ لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك .

ماذا أقول ؟. لا نستعين إلا بك ؟. إني لأكاد أسمع من يهمس في أذني همساً يقول لي : أما « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » فقد فقهناها ، وأما « إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ففي النفس منها شيء ، إذ من ذا الذي يطيق هذا الاستغناء الكلي عن

معونة الخلق ؟. أليس الناس كلهم يعين بعضهم بعضاً ، ويستعين بعضهم ببعض ؟. أليس التعاون هو أساس الحياة ؟. أليس القرآن نفسه يقول : « وَتَعَاوَنُوا » ؟.

بل أنا أستعين بك ، وأنت تستعين بي . ولكن نحن والناس جملة والعالمون كتلة ، بمن نستعين وراء طاقاتنا المحدودة وحيلنا المعدودة ؟!. ثم حين أستعين بك وتستعين بي ، من ذا الذي يبعث الباعثة في قلبك لمعونتي وفي قلبي لمعونتك ؟. ومن ذا ييسر لي ولك وسائل هذه المعونة ؟. ومن ذا الذي ينجح هذه المعونة ويؤتيها ثمرتها ؟. الله وحده – في الحقيقة وفي النهاية – هو المستعان .

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » . بإجماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله ؛ شرك العبادة لغير الله ، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله . وباجتماع هاتين الكلمتين بطلت العقائد المتطرّفة كلها ؛ بطلت عقيدة الجبر المحض الذي ينكر قدرتنا ومسئولياتنا ، وبطلت عقيدة الاختيار المحض الذي يدعي الاستغناء عن معونة ربنا ، فنحن نعمل ونتوكل ، نعبد ونستعين . نعبد أولاً ، ونستعين آخراً . نؤدي واجبنا ثم نطالب بحقوقنا . ألا فليستمع أولئك الذين لا يفتئون يطالبون بحقوقهم ، ولا يبدؤون بأداء واجباتهم : إنهم لم يتأدبوا بآداب القرآن. ألا فليصلحوا موقفهم من فاتحة الكتاب ، التي يرددونها في صلاتهم كل يوم بضع عشرة مرة على الأقل .

هكذا عرفنا الله بصنعه ، في الآفاق وفي أنفسنا . عرفناه فيما صنع وفيما يصنع وفيما سوف يصنع . عرفناه بعقولنا وقلوبنا ، ثم توجهنا إليه .

هذا الجانب الإلهي – نظريّه وعمليّه – يمثل نصف المهمة القرآنية وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة في شطرها الأول .

غير أن الإنسان ليس كائناً روحياً محضاً ، حتى تكون كل رسالته في الحياة أن يتأمل في صنع الله ، وأن يمتلىء إعجاباً به . إنه كائن مزدوج ؛ عبد لله وسيد للكون . إنه خليفة في الأرض مسئول عن عمله في خلافته ، كما هو مسئول عن موقف عبوديته . الله يخلق ويصنع ، والإنسان يعمل ويكسب . حياته الطبيعية تتقاضاه أن يعمل ، وحياته النفسية تتقاضاه أن يعمل ، وحياته في أسرته وفي بيئته ، وفي أمته وفي الأسرة الإنسانية وفي علاقته الروحية ... كل أولئك يتقاضاه أن يعمل .

فلننتقل إلى هذا الجانب الإنساني ؛ إلى عمل الإنسان ، وهو جانب يتألف كذلك من عنصرين : عنصر نظري تعليمي ؛ نرى فيه نماذج الأعمال الإنسانية في مختلف صورها ، جميلها ودميمها . وعنصر عملي تنفيذي ؛ هو صدى تلك المعرفة ، وثمرة تحريكها لعزائمنا .

ولنبدأ بالعنصر النظري ؛ كيف عرض القرآن علينا صور العمل الإنساني ؟.

إنه يتبع في ذلك منهجاً مزدوجاً ، يجمع بين القيم الذاتية والقيم العرضية للأخلاق والسلوك :

منهج القيم الذاتية الذي يخاطب الضمير ، يدعو إلى الفضيلة باسم الفضيلة ، مصوراً ما فيها من جمال واعتدال ، وينهى عن الرذيلة باسم الرذيلة ، مبيناً ما فيها من دنس وانحراف .

ومنهج القيم العرضية الذي يخاطب العاطفة ؛ يرغّب في الفضيلة وينفر من الرذيلة باسم المصلحة الحقيقية ، ويحكم النظر إلى عواقب الأمور وآثارها في العاجل والآجل . ويضرب لذلك الأمثال الكثيرة ، ويقص من أجل ذلك السير التاريخية في مختلف العصور .

العجيب من شأن سورة الفاتحة أنها — على فرط إيجازها — قد انتظمت المنهجين جميعاً في كلمتين : ذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة ، بينت لنا أولاً قيمته الذاتية ، فوصفته بالاعتدال والاستقامة « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » . ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى ، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته ، وأشارت في الوقت نفسه إلى مثله التاريخية في صورة أهله ، الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين عرفوا الحق فقدسوه ، وعرفوا الخير ففعلوه .

ثم لم تكتف بذلك ، بل وضعت معياراً لأنواع الطرق المنحرفة عن طريقهم ، فبينت أن الانحراف على ضربين :

انحراف عن قصد وعلم ، عناداً واستكباراً واتباعاً للهوى ، وهذا هو طريق « الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » الذين رأوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلاً ورأوا سبيل الغيّ فاتخذوه سبيلاً .

وانحراف عن جهل وطيش ، وهذا هو طريق « الضَّالِّينَ » ، الذين لا يتوقفون عند الشك ، بل يقتفون ما ليس لهم به علم ، فيخبطون خبط عشواء دون تثبت ولا تبصر . لا ريب أن كلا الضربين مذموم ، وإن كان بعضهما أسوأ من بعض ؛ العالم المنحرف مأزور ، والجاهل المنحرف غير معذور ، والعالم المستقيم هو المبرور المأجور .

هذه المشارب الثلاثة ، نجد دائماً أمثلتها في الناس ، لا في شأن الخلق والسلوك فحسب ، بل في كل الشئون ؛ في الاعتقاد والرأي والتعليم والإخبار والفتيا ، والحكم والقضاء . وهكذا جاء في الحكمة النبوية : قاضيان في النار وقاض في الجنة ؛ فالقاضي الذي في الجنة ، رجل عرف الحق فقضى به ، واللذان في النار ، رجل عرف الحق فقضي بخلافه ، ورجل قضى للناس على جهل .

من استحكمت معرفته بهذا الأصل النظري ، وتبينت له مسالك الهدى والاستقامة ، ومسارب الاعوجاج والضلالة ، ماذا يكون موقفه العملي منها ؟ .

لا ريب أن العاقل الرشيد يلتمس من هذه الطرق أقومها ، ويطلب

أسلمها ، ويتوجه بعزيمته إلى أحسنها . هذا الالتماس والطلب والتوجه هو الذي ترجمته لنا سورة الفاتحة في كلمة واحدة « اهدنا » : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت المقاصد القرآنية الأربعة : الجانب الإلهي نظريه وعمليه . والجانب الإنساني في نظريه وعمليه . كل ذلك في أوجز عبارة وأحكم نسق .

سورة الفاتحة إذن هي خريطة القرآن وبيان مواده ، إنها جوهرة القرآن ونواته ولب لبابه ، فهي بحق (أم القرآن) .

كانت هذه هي النظرة الأولى ، وازنّا فيها بين مواد الفاتحة ومواد القرآن . وبقيت لنا نظرة ثانية سريعة ، نوازن فيها بين أسلوب الخطاب في الفاتحة وأسلوب الخطاب في القرآن ؛ ماذا نرى في هذين الأسلوبين ؟ .

نرى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف :

فسورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت من أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا ، ولكن على لسان البشرية المؤمنة ، تعبيراً عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء . على حين أن سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة ، حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض . وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية : الفاتحة أحد طرفيها ، وسائر القرآن طرفها الآخر ؛ الفاتحة سؤال ، وباقي

القرآن جواب . الفاتحة هي طلب الهدى ، والباقي هو الهدى المطلوب .

فلننفذ بهذه النظرة إلى نهايتها ، فإنها ستعود إلينا بحصيلة ثمينة من العبر النفسية :

أول ما نلتقطه من هذه العبر : أن القرآن – وهو دستور الإسلام – لو جاءنا بدون الفاتحة لكان دستوراً وافداً على الأمة طارئاً عليها ، يعرض نفسه عليها عرضاً ، أو يفرض عليها فرضاً ، أو يمنحها منحة ، فليكن مع ذلك حقاً كله ، وخيراً كله ، وهدى كله ، لكنه لو لم تطلبه الأمة ولم تعلن حاجتها إليه ، لكان لها أن تستقبل البضاعة المعروضة بغير طلب ، وأن تقول له زاهدة فيه : لا حاجة بي إليك . أما الآن فالموقف يختلف كل الاختلاف :

إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي ، الذي تعلن به الأمّة المؤمنة حاجتها إلى هذا الدستور وتؤكد مطالبتها به ، وأن موقع القرآن كله – بعد الفاتحة – هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب . فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مطلبهم هذا قائلين : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وإذا بالقرآن يزف إليهم هديته وهدايته قائلاً لهم : دونكم الهدى الذي تطلبون . فكانت أول كلمة في القرآن بعد الفاتحة هي : « ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(١) .

(١) سورة البقرة : ٢ .

وهكذا جاءهم على ظمإٍ وتعطش فكان أنقع لغلتهم ، وكان أكرم على نفسه وعلى الناس ، من أن يتعرّض للمعرضين عنه ، وأن يلزم من هم له كارهون ، وكان فوق ذلك كله أقطع لحججهم ومعاذيرهم في إهماله ونسيانه ، لو أهملوه أو نسوه فيما بعد ، ذلك أنه لم يلزمهم إلا ما التزموا ولم يجئهم إلا بما طالبوا ، وخير الدساتير ما نبع هكذا من حاجة الأمّة وكان تحقيقاً صريحاً لمطامحها الرشيدة .

لم تكتف الأمّة المؤمنة بأنها طالبت بهذا الدستور ، ولكنها اختارت ووحدت السلطة نفسها ، ونصت في صلب قرارها على المؤهلات الممتازة التي كانت سبباً في هذا الاختيار والتعيين ، فقد طلبت أن يكون هذا التشريع من عمل المشرّع الأعظم الأكرم ، المعروف بخبرته التامة في التربية العالمية «رَبِّ الْعَالَمِينَ» . وبعطفه الشامل على مطالب الرعيّة : « الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » ، ثم أعلنت في صلب قرارها أن المسئولية النهائية لجميع السلطات التنفيذية ستكون أمام هذه السلطة التشريعية العليا « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » .

ثم لم تكتف الأمّة المؤمنة بهذا كله ، بل إنها وضعت الإطار الذي يلزم أن يقع هذا التشريع في داخل حدوده ، ورسمت المبادئ الأساسية التي يجب أن يقوم عليها ، فطالبت بأن يكون تشريعاً لا يميل مع الهوى يمنة ولا يسرة ، تشريعاً لا يقوم على فكرة المحاباة لفرد أو لفئة أو لشعب ولكن يمثل العدل الصارم ، والصراط المستقيم .

وأخيراً لم تقتنع في وصف هـذا التشريع بتلك الأوصاف العامة والألقاب الكلية ، بل حددت نموذجه ومثاله من الواقع التاريخي ، فطالبت بأن يكون من فصيلة التشريعات الفاضلة المعروفة ، التي جرّبت فائدتها وتحقق حسن عاقبتها ؛ شرعة الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والرشاد .

إذا نظرنا إلى الفاتحة من هذه الزاوية ، فإنه يحق لنا أن نقول : إن القرآن إذا كان هو الدستور فالفاتحة هي أساس الدستور ، بل لو صح هذا التعبير ، لقلنا : إنها دستور الدستور .

رسالة الاسلام وسر نجاحها

الحمد لله ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على جميع الأديان ولو كره المشركون . والصلاة والسلام على خير خلقه ، سيد المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـد : فلقد نظرنا في تاريخ الحركات الدينية وتاريخ الرسالات الإصلاحية ، ونظرنا في تاريخ الدول الناشئة ، وتاريخ الدعوات الجديدة فما رأينا كرسالة الإسلام ، في سرعة انتشارها . وفي تمكنها واستقرارها وفي عمق نفوذها وبُعد آثارها .

لقد قام الاسكندر بفتوحه الخاصة قبل ميلاد المسيح ، فهل كانت تلك الفتوح إلانار الهشيم ، سرعان ما اشتعلت ، وسرعان ما انطفأت ؟. وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وعوائدهم ، وأنظمتهم وآدابهم ؟. ألم يكن الأمر على العكس ، فاعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها ؟!.

وقد جرّب الاستعمار الأوربي الحديث حيله الواسعة ، وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق ، لكي يغزو عقول أهليها وقلوبهم ، كما غزا أرضهم وديارهم ، فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة ؟ . ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة في آماد مديدة ، فيخرج منها كما دخلها أول مرة ، لم يغيّر شيئاً من جوهرها في عقائدها وفي لغتها وفي أسلوب تفكيرها !.

أما رسالة الإسلام ، فإنها جين بسطت جناحيها ـ في أقل من قرن ـ على نصف المعمور ، كانت كأنما أنشأت خلقاً آخر .. لقد بدّلته من أوطانه المتفرقة وطناً واحداً ، ومن قوانينه المختلفة قانوناً واحداً ، ومن آلهته المتعددة إلٰهاً واحداً .

لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحوّلته تحويلا ، وبدّلت أسلوب تفكيره تبديلا . بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لساناً إلى جانب لسانه وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل ، وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد ثم هي لا تزال في كل عصر تتلقى معاول الهدم من أعدائها ، وعوامل التحلل من أبنائها ، فتتكسر هذه الصدمات على صخرتها وهي قائمة تتحدى الدهر ، وتنتقل من نصر إلى نصر : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »[1] .

فليحاول الباحثون ما شاءوا أن يتعرفوا مصدر هذه القوة الغلّابة وهذا الانتصار الباهر !.

إن هذا النجاح ليس مرده في نظرنا إلى سبب واحد ، ولا إلى فصيلة واحدة من الأسباب : لقد تضافرت عليه شخصية الداعي ، ومنهاج دعوته وشخصية الأمّة التي تلقت تلك الدعوة ، وطبيعة الدعوة نفسها ، ومن وراء ذلك كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسالة حتى بلغت كمالها .

أما صاحب الرسالة ـ وما أدراك من صاحب الرسالة ـ فحسبك منه

(١) سورة آل عمران : ١٢٦ .

أنه – عليه الصلاة والسلام – جمع خلالاً ، كل واحدة منها كانت عنصراً فعّالاً في هذا النجاح ، خِلالاً نعد منها ولا نعدها ، ونرسم شيئاً من جوانبها ولا نحدها : صبراً ومصابرة ، وجدًّا ومثابرة . وحرصاً على بلوغ الغاية والتزاماً لأدق حدود الصدق في الوسيلة وفي الغاية . تلطف في الدعوة وقصد في الحجّة ، وتعليم بالأُسوة والقدوة ، وتأديب باللمحة والنظرة وطهر في السيرة والسريرة ، لا حقد ولا ضغينة ، ولا ختل ولا مواربة سخاء بما في اليد ، وزهد فيما بيد الناس ، تضحية بحظوظ نفسه ، ونزول عن حقوق شخصه .

أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة؛ فعزيمة متوافرة لا تني ، وصلابة في الحق لا تنثني .

هذه الخلال الفضلى وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع في نفس الرسول الكريم من ينبوع ذي ثلاث شعب : الإيمان ، والحب ، والأمل ؛ إيمان بقدسية الرسالة وضرورة حملها ، وحب للإنسانية ، واهتمام بانقاذها وأمل في نجاح الدعوة وبلوغها أقصى غاياتها .

نعم ، إن هذا القلب الذي يمتلئ إيماناً وحكمة ، يفيض في الوقت نفسه حناناً ورحمة ، ويطالع في الأُفق دائماً أملاً باسماً في النجاح والفلاح.

لا أقول : إنه يفيض رحمة بأتباعه وحسب ؛ فإنه – وإن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر – رحمة للعالمين : لأعدائه وأوليائه أجمعين حريص على خيرهم وسعادتهم ، مشفق عليهم من غيّهم وشقوتهم ، « عَزِيزٌ

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ »(١) .

ولا أقول : أنه كان يداعب أملا في نجاح جزئي يخص عشيرته الأقربين ، أو يخص أم القرى وما حولها ، ولكنه كان يحمل أملا في نجاح محيط شامل ينتظم البشرية كلها : ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح انتقاصاً من طيب نفسه ونعيمها ، وزيادة في أحزانها وآلامها ، هذا القلب الرحيم ، كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يرى طائفة في الإنسانية يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة ، أو في حمأة الفساد والرذيلة ، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله ؟. كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه وترددوا أمامه في الهاوية متهافتين على ضلالهم كما يتهافت الفراش على النار ؟.

لا بد إذن أن يعيد الكرة ، وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة ، عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود ، فتشرق الأرض كلها بنور ربها ، وتصبح برًّا وعدلا ، وسعادة وكرامة .

إيمان قوي ، وحب عميق ، وحرص على اقتناص الأمل البعيد ، ذلك هو سر عزمه المتوقد وجهاده المتجدد الذي كان أول عوامل النجاح .

هذا العامل – من جانب صاحب الرسالة – يسنده ويؤيده عامل آخر من جانب الأمّة التي تلقت تلك الدعوة . والأرض التي بزغ فيها نورها ،

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

أرض بكر لم تدنسها في التاريخ كله أقدام الفاتحين ، ولم تتحكم فيها يوماً ما أيدي الغاصبين .

وأما ألمعية الذهن فقد نشبت عنها المقاومة الغريزية الأولى لكل غريب وفتحت عينها على كنه النور الجديد ، وإذا هو يملك عليها شعورها وتفكيرها ، فحملت مشعله بسواعدها القوية وقلوبها الفتية ، الحمية إذن هي الحمية ، ولكنها حمية الحق لا حمية الجاهلية .

هكذا تجاوبت نفسية الداعي والمدعو ، فالتقت القوتان في حلقة مفرغة حملت إلى العالمين رسالة الإسلام .

« وختاماً » فما رسالة الإسلام ؟ إنها رسالة تدعو إلى نفسها بنفسها « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ »(١) ، رسالة نزيهة القصد ، مجردة عن كل غرض ، لا تطلب الأجر ، ولكن تمنح الأجر . إنها ليست رسالة العلوّ والاستعباد ، ولا رسالة الطغيان والفساد ، ولا رسالة البؤس والحرمان إنها رسالة النور والإيمان ، والعدل والإحسان ، رسالة الفطرة السليمة والأخلاق الكريمة ، والسياسة الحكيمة ، سياسة السداد والرشاد في شأني المعاش والمعاد ، فلماذا لا تكون رسالة الإنسانية كلها ؟ لماذا لا تعتنقها البشرية جميعاً ؟ .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »(٢) .

---

(١) سورة النور : ٣٥ .   (٢) سورة القصص : ٥٦ .

المجتمع الصالح وكيف يتكون ؟

الحمد لله أمر بالتآلف ، ونهى عن التفرقة . والصلاة والسلام على أفضل من ألف بين قلوب المؤمنين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد : فإن المجتمع الصالح يتكون من المواطنين الصالحين .

والمواطن الصالح هو الذي يتخذ من وطنه ومن مواطنيه موقفاً يتوافر فيه شرطان اثنان : كف الأذى ، وبذل الندى .

المواطن الصالح هو الذي يأمن الوطن والمواطنون شرّه ، ويرجون خيره وبره ، هو الذي يحترم حقوق غيره ، فلا ينتهكها ولا يخونها ، وينهض بواجباته فلا يتهاون فيها ولا ينتقصها .

أخي القارئ : ما السبيل إلى تحقيق هاتين الغايتين ؟ . ما وسيلتنا الناجعة لتطهير أعضاء المجتمع من داء الفساد والإفساد ، ومن مرض التقصير والإهمال ؟ .

في سبيل هذه الغاية المزدوجة تلجأ الدولة عادة إلى أيسر الوسائل وأعجلها ، تلجأ إلى فرض العقوبات الرادعة على من تسوّل له نفسه انتهاك حرمات القانون ، وإلى فرض الجوائز المشجعة لمن يؤدي واجبه في صدق وأمانة ، ترجو من وراء ذلك أن المسيء إذا عرف أن عينها ساهرة ، وأنها

تـأْخذ كل مذنب بذنبه ، وأنها إذا أخذته لم تفلته – كان ذلك حاجزاً له ولغيره عن الإثم والظلم ، وأن المحسن إذا عرف أن جهده لم يضع هباءً وأنه سيكافأُ على قدر خدمته وإفادته – كان ذلك باعثاً له على مضاعفة الجهد .

لكن الواقع أن هذا العلاج بنوعيه لا يزيل الداء بنفسه ، ولكن يخفف من وطأة الشر ، وأهل الشر كثيرون . وأن الدولة لو كان لها ألف عين ساهرة ما استطاعت أن تقتفي أثر الناس جميعاً في الخلوات والفلوات وأن تحيط علماً بحسناتهم وسيئاتهم في السر والعلن ! .

وهكذا يبقى في المجتمع دائماً مجرمون معتادو إجرام ، مطمئنون إلى أنهم سيفلتون من طائلة العقاب ، ويبقى في المجتمع دائماً عاملون كادحون لقد تركوا في زوايا النسيان والحرمان ، بل نقول : أنه حتى في الحالات التي يقع عليها سمع الدولة وبصرها ، وتنفذ فيها وعدها ووعيدها ، فتكف بالعقوبة أذي الأَشرار ، وتؤيد بالمثوبة جهود العاملين – نقول : إنها تصل إلى هذه النتائج من غير مقدماتها ، وتـأْتي البيوت من غير أبوابها ذلك أنها لا تحسم الداء ولا تقتلع جذوره ، ولكنها تدرأ الخطر ، وتسكن الأَلم وتعالج الأُمور علاجاً سطحياً وقتياً ولا تمنع النكسة ، ولا تكفل البرءَ الدائم المستقر – لأَن موطن الداء في العقل الباطن المكبوت قد ترك على سجيته ؛ فإن كانت نزعته إلى الإثم والعدوان ، فلسوف يتلمس نقطة ضعف في الحواجز ليقتحمها ويعود إلى ما كان له من جموح وثورة ، وإن

كان ميله إلى التثاقل والقعود ، فسوف يتربص أول فرصة ليعود إلى ما كان عليه من استرخاء وفترة ؛ لأَن سلوكه في كلتا الحالتين مرهون بـأَسباب خارجية ، يتحول بتحويلها .

وأخيراً نقول : إنه حينما يكون هذا العلاج المادي حاسماً ونهائياً – بلا رجعة ولا نكسة – فإنه إنما يصل إلى هذه النتيجة على حساب الكرامة الإنسانية والفضيلة النفسية ، ذلك أنه يجعل اجتنابنا للإثم والظلم والتزامنا للعدل والخير عملاً آلياً أو شبه آلي ، وأنه في سبيل ذلك يستغل ما في النفوس من غريزتي الخوف والطمع ، وهما أحط الغرائز وأقربها إلى الفطرة الحيوانية . فالمجتمع الذي لا يكف أفراده عن الشر ولا ينبعثون إلى فعل الخير إلا بعوامل الرغبة والرهبة – مجتمع بدائي غليظ لا يصح أن يحسب نفسه في عداد المجتمعات الراقية المهذبة .

لست أدعو بهذا إلى إلغاء قوانين العقوبات ، ولا إلى إبطال سنة الجوائز والمكافآت ، ولا إلى محو أُسلوب الترغيب والترهيب محواً تاماً من مناهج التربية والتثقيف ، فذلك ما لم تخل منه شريعة وضعية ولا سماوية ، ولا عصر من أرقى عصور المدنية ، ولكنني أُقرر أن هذا الضرب من العلاج يجب أن يعد علاجاً استثنائياً مدخراً في كل جماعة لشذاذها الناقصين ، في تكوينهم النفسي والاجتماعي ، أُولئك الذين رسبوا في مراحل نموهم ، فبقوا دهرهم في دور الطفولة البشرية أدنى إلى الحيوان

منهم إلى الإنسان ، أولئك الذين لا يقادون إلا من أنوفهم ، ولا يؤمنون إلا بما تبصره أعينهم وتلمسه أيديهم .

فأما سائر البشرية ، فأما الفطر المرنة القابلة للتطور والترقي ، فإنه يجب أن يعتمد في تربيتها على ما ينطوي فيها من الصفات الكريمة ، والمشاعر النبيلة ، وأن يبدأ في تغذيتها منذ نعومة أظفارها بالغذاء الأدبي المعنوي اللائق بإنسانيتها ، كما يجب أن يعوّض ما تفقده من غذائها في أثناء نموها بعلاج هادئ رفيق ، بطيء عميق ، نفّاذ فعّال تتحول به الصفات ، ويقوّم به المعوج من الأهداف والنزعات . هذا الغذاء والعلاج – وإن اختلفت ألوانه ، وتشعبت مسالكه – له في موضوعنا اسم واحد : ذلك هو إيقاظ الشعور بالمسئولية في كل ضمير ، ذلك هو إشعار كل عامل وكل مقبل على عمل بأن عمله منظور إليه معدود له أو عليه ، وأن كل حركة منه أو سكون مكتوبة محسوبة منظورة مسموعة ، وأنه سيوجه إليه في شأنها السؤال ، وأنه سيقدم عنها الحساب ؛ ثم صقل الحساسية النفسية ، وإقناعها بقيمة هذه المناقشة والمحاسبة ، وما سيكون لها من موقف عظيم ، تتهيب النفوس الحية ما قد يسفر عنه من لوم وتثريب وتفرح النفوس المطمئنة بما قد يتجلى عنه من ثناء وتكريم ، ولو لم يكن وراء ذلك عقوبة ولا مثوبة .

إيقاظ الشعور بالمسئولية في كل ضمير هو الخطة التي أجمعت عليها أقوال الحكماء والمربين .

لكن ما طبيعة السلطة التي ستتولى محاسبتها ؟ وما كنه هذه الحكمة التي سنقف أمامها لتقديم الحساب من أعمالنا ؟ .

هنا تتشعب المذاهب الإصلاحية إلى ثلاث شعب :

فالمذاهب ذات النزعة الأخلاقية تجعل مسئولية كل امرئ أمام نفسه ومن ثم تبذل جهدها في تربية الضمير الفردي .

والمذاهب ذات النزعة الاجتماعية تعد المسئولية أمام الأمّة ، ولذلك تعنى بتربية الوجدان الاجتماعي .

والمذاهب ذات النزعة الروحية الصوفية تقرر أن المسئولية أمام الله وحده ، وهكذا توجه كل عنايتها لتربية الشعور الديني .

إذاً فلا بد من دوافع التربية الصالحة في النشء الجديد ، الذي ننتظره لرفع راية الإسلام عالياً ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . وبذلك يمكننا – بعون الله – أن نربي جيلاً يعرف الحق ، فيتمسك به ، ويعمل له ويعرف الباطل فيجتنبه ويحذر منه . ويومئذ تصلح الأحوال ، ويبلغنا الله تعالى مقاصدنا في طاعته ، وما ذلك على الله بعزيز .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وسلم .

بين العدل والفضل

الحمد لله مدح الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . والصلاة والسلام على سيد الكرماء وأتقى الأتقياء ، وعلى آله وأصحابه البررة الأوفياء .

وبعد : لقـــد نظرنا ملياً إلى مناهج الناس ومشاربهم في سلوكهم فوجدناهم يصدرون في معاملاتهم عن إحدي نزعات ثلاث : إما نزعة الاستئثار ، وإما نزعة الإيثار ، وإما نزعة المبادلة والمعادلة .

نزعة الاستئثار نزعة يغلب فيها حب الأخذ على حب العطاء ، ونزعة الإيثار نزعة يزيد فيها حب البذل والنفع على حب الأخذ والانتفاع ونزعة المبادلة نزعة يتقابل فيها الطرفان على حد سواء .

بعض الناس يميل بطبعه إلى الاستئثار والعلوّ : يحفظ ما في يده ويتطلع إلى ما في يد غيره ، يكيل لنفسه بالكيل الأوفي ، ولغيره بالبخس والخسران ، يظلم قبل أن يُظلَم ، فإذا أُوذي أسرف في الانتقام ، وجاوز الحد في العقاب ، وهكذا يسعى إلى أن يكون أبداً هو الغالب الرابح ، ولو بالإثم والباطل !.

وبعض يستوحي في معاملته قانون العدل والمساواة ، ولكنه يطبقه من جانبه تطبيقاً صارماً ، فلا يعطي إلا بقدر ما يأخذ ، ولا يجزي إلا على

وفق ما ينال ، لا يحب أن يظلم ، ولكنه أيضاً لا يغضي على قذى : فهو يجزي بالسوء سوءًا كما يجزي بالإحسان إحساناً .

وبعضهم تغلب عليه نزعة السماحة واليسر ، فهو إلى العفو والصفح أميل منه إلى الانتقام ، وهو إلى بذل واجبه أسرع منه إلى استيفاء حقه تسخو نفسه بأن يعطي أكثر مما يأخذ ، وأن يتنقص من حظه ليزيد في حظ الآخرين ما قيمة هذه المنازع الثلاثة في نظر القرآن ؟.

لعل من نافلة القول أن نفيض في بيان حكم القرآن على الفئة الأولى سجية الأثرة والبغي والعلوّ ، فالقرآن مشحون بذمها ومقتها والنعي عليها : « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً »[١] . « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً »[٢] . « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[٣] .

فإذا جاوزنا نطاق هذه الفئة المذمومة إلى ذوي المبدأين الآخرين ، مبدإ المحاسبة على قانون المساواة والعدل ، ومبدإ السماحة والفضل ، فقد يلوح لنا في باديْ الرأي أننا نتجه بذلك نحو مبدأين ساميين ، ومثلين حميدين وقد نظن أن التفاوت بينهما في نظر القرآن لن يكون إلا تفاوتاً في مراتب

(١) سورة طه : ١١١ . (٢) سورة القصص : ٨٣ .
(٣) سورة المطففين : ١ – ٦ .

النبل والسمو ، على حين يجمعهما شعار الفضيلة ، وينتظمهما شرف الحمد والثناء .

فهل يصدق هذا الظن ؟ .

هل إذا نظرنا إلى هذين المبدأين في مرآة القرآن الحكيم ، نراهما معروضين في معرض الفضائل المأمور بها ، أو المثني عليها ، وهل نجد التفاوت بين مكانيهما في معرض الأخلاق القرآنية ليس إلا تفاوتاً في مقدار الحث والترغيب ، ومبلغ الحمد والثناء ؟ .

هيهات هيهات ! .

إن القرآن حين وزّع القيم الأخلاقية على هذه المبادئ لم يجعل القسمة بينهما قسمة ثنائية ، ولكنه جعلها قسمة ثلاثية ، لها طرفان ووسط . جعل من بينها فضيلة واحدة رفعها إلى الطرف الأعلى ، تلك هي فضيلة الإيثار . وجعل من بينها رذيلة واحدة وضعها في الطرف الأدنى ، تلك هي رذيلة الاستئثار ، أما الوسط بين الطرفين وهو مبدأ المقاصة الدقيقة بين الحقوق والواجبات وتحري المساواة بينها – تلك القاعدة التي كانت الحكمة اليونانية تعدّها أم الفضائل – فإنها في نظر القرآن ليست فضيلة ولا رذيلة ، إنها لا تستحق عنده مدحاً ولا ذماً ، وإنما هي رخصة مباحة لا ثواب لها ولا عقاب عليها .

من كان في شك من ذلك ، فليقرأ قول الله – جلت حكمته – :

« وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »[١] .

هكذا دفع رذيلة الظلم والبغي فجعلها مناط الذم واللوم ، ومجلبة العقاب الأليم ، ثم أشاد بفضيلة الصبر والمغفرة فجعلها من عزم الأمور وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ »[٢] . أما المقاصة في الانتصاف من الظلم فإنه لم يتبعها ذماً ولا ثناءً ، ولم يرتب عليها ثواباً ولا عقاباً ، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها ، فقال :

« فَأُولٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » .

هذه القسمة الثلاثية نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الحكيم : يقول الله – جل ثناؤه – : « لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ »[٣] . « إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً »[٤] . نهى الناس بادئ ذي بدءٍ أن يغلظ بعضهم لبعض بالفاحش من القول ، فهذه هي الخطة المذمومة ، خطة البدء بالإساءة وقد بيّن أنها تستوجب غضب الله ؛ ثم استثنى من استحقاق هذا الغضب من كانت إساءته رداً لمظلمة ، فأخرجه من عداد المغضوب عليهم ، ولكنه

(١) سورة الشورى : ٤١ – ٤٣ .
(٢) سورة الشورى : ٤٠ .
(٣و٤) سورة النساء : ١٤٨ ، ١٤٩ .

لم يثن عليه ولم يرغبه في هذا الانتصاف ، ثم ختم ببيان الخطة الحميدة والفضيلة المندوب إليها ، وهي خطة العفو عن الإساءة ، فأشار إلى أن من عفا عن سوء فقد تخلق بأخلاق الله ، ثم ألا يذكر الذي أسيء إليه أنه هو نفسه ليس بريئاً من الذنوب ، ولا معصوماً من السيئات ، فإن كان يحب أن يغفر الله له فليغفر هو لأخيه : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ »[١] .

ولنستمع إلى مثال ثالث من هذه القسمة الثلاثية في القرآن ؛ يقول الله تعالى : « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ »[٢] . فبيّن في هذه الجملة الوجيزة بُعد المدى بين طرفي الرذيلة والفضيلة ، رذيلة الأخذ بغير حق وفضيلة البذل لما هو أكثر من المستحق . ثم ذكر الوسط بينهما بعد ذلك في أسلوب التمليك والتخيير ، دون ترغيب ولا ترهيب ، فقال ـ عز شأنه : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »[٣] .

نعم إن من حقك أن تستوفي دينك كاملاً غير منقوص ، ولكن الحق شيء وكرم الأخلاق شيء آخر ، ولذلك عاد مرة أخرى إلى الترغيب في فضيلة المسامحة والمكارمة ، فقال ـ عظمت رحمته ـ : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »[٤] .

وبعد : فإنه على الرغم من وضوح هذه الدلائل والشواهد لا تزال

(١) سورة النور : ٢٢ . (٢) سورة البقرة : ٢٧٦ .
(٣و٤) سوره البقرة : ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ها هنا شبهة قوية ، وكأنني بالسائلين من كل جانب : كيف ننزل هكذا بمبدإ العدل والمساواة ، فنخرجه من نطاق الفضائل والرذائل ، ونجعله أمراً مباحاً مرخصاً فيه ، لا يستحق مدحاً ولا ذماً ؛ ولا أمراً ولا نهياً ؟ أليس القرآن نفسه قد كرر الأمر به والثناء عليه في أكثر من موضع ؟ : « كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ »[١] . « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »[٢] . (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[٣] .

ذلك مبين في المقال التالي .

وقبل أن نعود إلى إيضاح العدل ، لا بد من بيان فضل الإيثار ، الذي لا يساويه أي فضل . ويكفيك شرفاً به أن الله امتدح أقواماً آثروا ضيفهم على أنفسهم وأولادهم . وهـذا القرآن الكريم يوضح ذلك بقوله : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »[٤] . وقد وعد البشير النذير المعنيين ببشارة المدح التي بنص القرآن الكريم .

(١) سورة النساء : ١٣٥ . (٢) سورة المائدة : ٨ .
(٣) سورة الحجرات : ٩ . (٤) سورة الحشر : ٩ .

متى يكون العـدل فضيلة ؟

الحمد لله ولا إله إلا الله ، والصلاة والسلام على محمد رسـول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

وبعد : سؤال ينتظر جواباً :

ذلك هو السؤال عن مبدإ « المعاملة بالمثل » وعن قيمته الأخلاقية في نظر الحكمة القرآنية . من قضية هذا المبدإ أن يعامل الرجل أخاه على أساس المساواة في الخير وفي الشر : يجزيه بالسوء سوءًا وبالإحسان إحساناً لا ينتقص من حظ نفسه شيئاً ليزيد في حظ أخيه ، ولا ينتقص من حظ أخيه شيئاً ليزيد في حظ نفسه ، ولكن يعطيه بقدر ما يأخذ منه .

هل هذه المبادلة والمعادلة فضيلة محمودة في دستور القرآن ، يأمر بها أو يرغب فيها ، أو يثني عليها ؟ .

لقد قلبنا النظر في جوانب كثيرة من إرشادات القرآن الحكيم ، سواء في نطاق المعاملات المالية ، أو في دائرة الشئون الاجتماعية ، أو في معرض الأحداث الجنائية – فوجدناه في كل ذلك ينهى عن التزيد في حق النفس ويحض على الزيادة في حق الغير ، أما المعاملة بالمثل فلا نجد فيه نهياً عنها ولا تحريضاً عليها ، وإنما نجد إذناً وتخييراً ورفعاً للحرج ، لا زائداً على ذلك .

هكذا نظرنا في القرآن حين يتحدث في شأن المعاملة المالية ، فوجدناه من جهة ينهي عن أخذ الرّبا ، وعن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن الجهة الأخرى يأمر الدائن بإنظار مدينه المعسر ، ويندبه إلى التصدق عليه بدينه ، أما المحاسبة على السواء فلا يذكرها القرآن قادحاً أو مادحاً ولكن يذكرها مقرراً لوضعها القانوني المباح : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »(١) .

ثم نظرنا في القرآن حين يتناول أساليب المخالطة والمعاشرة ، فوجدناه من جهة ينهى عن الفحش والأذى والخشونة والغلظة ، ومن جهة أخرى يأمر بالعفو عن الأذى ، والإعراض عن اللغو ، ويثني الثناء المكرر على مقابلة الإساءة بالإحسان ، أو بالتي هي أحسن ؛ أما مقابلة السيئة بالسيئة فيتركها حقاً سائغاً لمن حرص عليها غير باغ ولا عاد .

ثم نظرنا في القرآن حين عرض لجريمة الإفك والقذف ، فوجدناه ينهانا أن نعامل القاذف بقطع ما بيننا وبينه من رحم ، أو بمنع ما يستحقه لدينا من بر وصلة ، ويحرضنا أشد التحريض على أن نشمله بكريم الصفح والمغفرة التماساً لعفو الله ولمغفرته .

فإذا استقصينا هذه المثل وأشباهها ، فإن المنطق يتقاضانا أن نستخلص منها هذه القضية الكلية : وهي أن المعاملة الفاضلة في نظر القرآن إنما هي

(١) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المعاملة على قاعدة احتمال الأذى ، وبذل الأكثر ، وأخذ الأقل ، أعني أنها هي التي تقوم على العفو والايثار والفضل . وأن الرذيلة إنما هي الطرف الأقصى ؛ في منع الحق ، وأخذ ما ليس بمستحق . أعني أنها تقوم على الجور والاستئثار والبخس ، أما الخطة التي بين بين ، وهي المعاملة بالمساواة والمعادلة الدقيقة – فإنها إذا وزنت في معايير الحكمة القرآنية لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة ، وإنما هي رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهي ، ولا يناط بها مدح ولا ذم ، ولا يستحق صاحبها ثواباً ولا عقاباً .

لكن الإشكال البارز في هذه النظرية أنها في بادئ الرأي تصادم المعقول والمنقول :

أما المعقول فهو ما تقرر في الفطر السليمة ؛ أن العدل فضيلة ، بل هو أس الفضائل .

وأما المنقول فالقرآن الكريم نفسه كثيراً ما يشيد بمبدإ العدل والمساواة : « كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ »[1] ، « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ »[2] . « وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[3] .

فلننظر الآن في حل هذه المشكلة ، وفي إزالة هذا التعارض :

(١) سورة النساء : ١٣٥ .
(٢) سورة المائدة : ٨ .
(٣) سورة الحجرات : ٩ .

مفتاح المسألة في نظرنا هو الفصل التام بين مقامين : مقام الحكم ومقام المعاملة . فمقام الحكم هو مجال العدل الدقيق الصارم ، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة ، والمكارمة والمجاملة .

فالقاضي حين يفصل بين الخصمين ، والوالد حين يوزِّع بره بين أولاده ، والمربي والمعلم ، والوصي والقيم ؛ وكل راع في رعيته – ليس له أن يحابي أو يجامل ، أو يؤثر أو يفضِّل ، إذ كيف يؤثر بما لغيره ، وكيف يتفضل بما ليس من حقه ؟ .

أتتملكه عاطفة الإحسان على البائس الفقير ، فيجامله في الحكم كاملا ؟ : « إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا »[1] .

أتدفعه سورة الغضب على العدو فيضاعف عليه الغرم ؟ . كلا . « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا »[2] .

أتحمله صلة القرابة أو النسب ، أو عصبية الإقليم أو المذهب على التحيز لإخوانه فيها ظالمين أو مظلومين ؟ . كلا . « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[3] .

(١) سورة النساء : ١٣٥ .
(٢) سورة المائدة : ٨ .
(٣) سورة الحجرات : ٩ .

أيحز في نفسه منظر العقوبة ؟. أيزعجه صوت الشكاية ، فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع خبرها ، ورفع إليه أمرها ؟ . كلا . « وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ »[1] .

أيترك دولة الإسلام نهباً لأعدائها ، أو يقطعهم شبراً من أرضها أو يمنحهم حق التحكم في رقبة من رقاب أهلها ؟ كلا . إن أرض الإسلام وحقوق المسلمين ليست ملكاً لفرد ولا جماعة ، وليست حقاً لأمّة ولا لجيل من الأمم ، إنما هي حق الأجيال كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فالتسامح فيها تصرّف في حق الغير ، والضن بها والدفاع عنها إنما هما غضب لحرمة الله والوطن : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ »[2] . « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ »[3] .

هكذا نرى أن المجال الذي يكون فيه العدل فضيلة محمودة ، بل فريضة مكتوبة ؛ هو المجال الذي تكون أنت فيه طرفاً ثالثاً وسطاً بين طرفين ، فيكون واجبك أن توفي كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد وكل شيء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه ، هذا هو ما نسميه مقام الحكم والفصل بين الناس . ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التي وردت في مدح العدل والأمر به، وجدناها صريحة في هذا

(١) سورة النور : ٢ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٠ .
(٣) سورة النساء : ٧٥ .

الباب : « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ »[1] . « فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ »[2] . « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ »[3] .

أما حيث تكون أنت أحد الطرفين تتصرف في شيئك وتساوم في حقك . فهذا هو ما نسميه مقام المعاملة . وهذا هو المجال الذي تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة ؛ وإلى الإيثار والمجاملة ؛ وهو المجال الذي يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعاً ؛ إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى مستوى الرخص والمباحات . وتبقى الفضيلة للفضل وحده : « إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »[4] .

(١) سورة النساء : ٥٨ .
(٢) سورة ص : ٢٦ .
(٣) سورة المائدة : ٤٢ .
(٤) سورة لقمان : ١٧ .

أزمة الصدق

نحمده حمد الصادقين ، ونقر بوحدانيته إقرار المعترفين المطيعين ونصلي على الصادق الأَمين ، وعلى آله وأَصحابه والتابعين .

وبعد : أَصدق الحديث كلام الله ، وأَحسن الحكم والهدى حكمه وهداه : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً »[1] ؟ . « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً »[2] . « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً »[3] .

قال الله تعالى وهو أَحكم القائلين وأَعدل الحاكمين : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »[4] .

نزلت هذه الآية المحكمة والآيتان قبلها في أَعقاب واقعة معينة ، كان التزام الصدق فيها فتنة شديدة ومحنة قاسية لأَصحابها .

ومن جرّب الحياة ومشكلاتها عرف أن لها أَحياناً أَزمات خلقية ، يقف المرءُ فيها موزَّع الإرادة بين المثل العليا التي ينشدها ضميره ، وحب السلامة أو الغنيمة التي تنزع إليها جبلته . ويناشده ضميره أن يقول كلمة الحق ولو كان مرًّا ، وتهتف نفسه به أنه لا نجاة له من ورطته إلا بالكذب !. فإذا تذرّع بالشجاعة ، وقاوم هوى نفسه ، وقال مقالة الصدق

(1) سورة النساء : ٨٧ .
(2) سورة المائدة : ٥٠ .
(3) سورة الأنعام : ١١٥ .
(4) سورة التوبة : ١١٩ .

فربما تمتد به الأَزمة وتشتد ، إذ يمتحن بعد ذلك امتحاناً عسيراً ، ويزلزل زلزالاً شديداً ، حتى يقول : يا ليتني كنت كذبت ! .

من أَحب أَن يرى صورة حيّة من هذا الصراع النفسي العنيف ، وأَن يرى النهاية العجيبة التي انتهى إليها ، فليستمع إلى فقرات من حديث كعب بن مالك ، وهو يقص علينا نبأَه ونبأَ صاحبيه :

قال كعب – رضي الله عنه – : لم أَتخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، وكان الحرّ شديداً واستقبل الناس فيها سفراً بعيداً ، وكانت المدينة قد طابت ثمارها وظلالها فكنت أغدو لأَتجهز للرحيل معهم ، فأَرجع ولم أَقض شيئاً ، ومازلت كذلك حتى سافر الجيش ، وهممت أَن أَرتحل فأُدركهم فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في المدينة أَحزنني أَني لا أَرى فيها رجلا إلا متهماً بالنفاق أَو عاجزاً معذوراً .

فلما بلغت أَن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – توجه قافلا حضني همي وطفقت أَقول : بماذا أَخرج من سخطه غداً ؟. واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أَهلي ، وطفقت أَتذكر الكذب ! فلما قيل أَن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أَطل قادماً راح عني الباطل ، وعرفت أَني لن أَخرج منه أَبداً بشيء فيه كذب ، فلما جلست بين يديه قال : (ما خلفك ؟) قلت : إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أَهل الدنيا لرأَيت أَني سأَخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيت جدلاً ، ولكني والله لئن

حدثتك اليوم حديث كذب ترضي به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه أني أرجو فيه عفو الله . لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ! . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (أما هذا فقد صدق ، قم حتى يقضي الله فيك) .

فقمت واتبعني رجال جعلوا يقولون لي : لقد عجزت أن تعتذر . فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأُكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ . قالوا : نعم . رجلان قالا مثلما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ . قالوا : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . فذكروارجلين صالحين لي فيهما أُسوة .

ونهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن كلامنا نحن الثلاثة فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حديقة أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ، أُنشدك الله هل تعلمني أُحب الله ورسوله ؟ . فسكت . فمازلت أُناشده ، فما زاد على أن قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي وتوليت راجعاً ، حتى إذا مرّت أربعون ليلة إذا رجل يجيئني يقول : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أُطلقها ؟ . قال : بل اعتزلها ولا تقربها . وقال

لصاحبي مثل ذلك . فقلت لامرأتي : إلحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعب : فلبثت بعد تلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة ، فبينما أنا على ظهر بيت من بيوتنا ، بعد أن صليت صلاة الفجر وأنا على الحال التي وصف الله ؛ قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ على الجبل بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر . قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرج . فانطلقت قاصداً نحو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتلقاني الناس في الطريق فوجاً فوجاً ، يهنئونني بالتوبة حتى دخلت المسجد ، فسلّمت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال وهو يبرق وجهه من السرور : (أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أُمك) قلت : يا رسول الله أمن عندك أم من عند الله ؟ . قال : (بل من عند الله). قال كعب : وأنزل الله على رسوله في شأننا : « لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .. إلى قوله تعالى وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »[1] . ا هـ .

هكذا قص علينا الوحي السماوي نبأً هؤلاء النفر الثلاثة ، الذين صهرتهم نار الاختبار في فضيلة الصدق ، فكشف اختبارهم عن معدن حر كريم . ولكنه لم يشأْ أن يترك هذه الواقعة الفردية دون أن يستخرج

(١) سورة التوبة : ١١٦ – ١١٩ .

منها عبرتها الكلية . ثم يلقيها درساً على المؤمنين كافة ليكونوا معهم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »[1] . كأنه يقول : أرأيتم أيها المؤمنون كيف كانت عاقبة الشجاعة في قول الحق ؟. أرأيتم كيف انجلت غمرتها . وجعل الله منها فرجاً ومخرجاً ؟. أرأيتم كيف أسبغ الله على أصحابها نعمة الرضا . وسجل في كتابه شرفهم ذكراً يتلى ؟. ألا فلتكن لكم فيهم أسوة نعم الأسوة . فالزموا الصدق ولو توجستم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة . واجتنبوا قول الزور ولو ظننتم فيه النجاة ، فإن فيه الهلكة .

والحق أن العبرة في هذه الحادثة عبرة مزدوجة ؛ ذلك أن أولها زلة وآخرها توبة ، فهل يكتفي القرآن باستخراج العبرة من آخرها دون أولها؟. كلا . إنه لو فعل ذلك لكان إغراءً بالتهاون في العمل ، وتشجيعاً على التبجح بالذنب وعدم الاكتراث به ، مادام سوف يمحوه الاعتراف به والتوبة فيه . وما هكذا يصنع المربي الحكيم ، لذلك نرى الآية المجيدة تنطوي على وصيتين اثنتين :

وصية أساسية بالتوقي من الذنب والاحتراس الكلي من الوقوع فيه . وهذا هو المطلوب الأول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ » .

ووصية ثانوية لمن ألم بذنب ووقع فيه بألا يجمع على نفسه بين

---

(١) سورة التوبة : ١١٩ .

جريمة التقصير في الفعل ، وجريمة الكذب في القول . ليكن أول همكم إذن أيها المؤمنون أن تكونوا من المتقين ، فإن ألممتم بذنب فكونوا مع الصادقين .

هكذا وضعت الآية الحكيمة للنفوس علاجها في حال قوتها وضعفها وأشارت في الوقت نفسه إلى أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير .

الاســلام وكرامة الفــرد

نحمده سبحانه كرّم الإنسان بالإسلام . والصلاة والسلام على سيد الأنام ، محمد ، وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام .

وبعد : هل عرف الناس قيمتهم الشخصية في نظر الإسلام ؟. هل عرف الفرد الإنساني ما له في دستور الإسلام من منزل عزيز كريم ؟.

إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الانسانية ليست كرامة مفردة، ولكنها كرامة مثلثة : كرامة هي عصمة وحماية . وكرامة هي عزة وسيادة . وكرامة هي استحقاق وجدارة :

كرامة يشتقُّها الإنسان من طبيعته : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ »[1]. وكرامة تتغذى من عقيدته : « وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »[2]. وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »[3] ، « وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ »[4].

أوسع هذه الكرامات وأعمها ، وأقدمها وأدومها – تلك الكرامة الأولى التي ينالها الفرد منذ ولادته ، بل منذ تكوينه جنيناً في بطن أُمّه ، كرامة لم يؤد لها ثمناً مادياً ولا معنوياً ، ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته

(١) سورة الاسراء : ٧٠ .
(٢) سورة المنافقون : ٨ .
(٣) سورة الأنعام : ١٣٢ .
(٤) سورة هود : ٣ .

والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنفين مقترنين في شريعة الإسلام .

ما حقيقة تلك الكرامة ؟.

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة . هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر ، ذكراً أو أُنثى ، أبيض أو أسود ، ضعيفاً أو قوياً ، فقيراً أو غنياً ؛ من أية ملة أو نحلة فرضت. ظل ظليل ، ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك وعرضه أن ينتهك ، وماله أن يغتصب ، ومسكنه أن يقتحم ، ونسبه أن يبدل ، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه ، وضميره أن يتحكم فيه قسراً ، أو تعطل حريته خداعاً ومكراً .

كل إنسان له في الإسلام قدسية الإنسان ، له فيه حمى محمي ، وحرم محرم ، ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه ، وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه ؛ بارتكاب جريمة ترفع عنه جانباً من تلك الحصانة وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته ، وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها ، لأن جنايته ستقدر بقدرها ولأن عقوبته لن تجاوز حدها ، فإن نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو فلن تنزع عنه الحجب الأخرى .

بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه . كما يحمي أبناءه وأولياءه ، إنه يحمي أعداءه في حياتهم . ويحميهم بعد موتهم ؛ يحميهم في حياتهم

إذ حرّم قتالهم بدءًا بالعدوان ، ويحميهم في ميدان القتال نفسه ؛ إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال ، ثم يحميهم بعد موتهم إذ يحرّم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل ، ولم لا ؟. أليسوا أناساً ؟. فلهم إذن كرامة الإنسان .

هذه الكرامة التي كرّم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها . هذه الكرامة التي جعلها الإسلام درعاً واقية يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغاة والجبارين . هل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين ؟ .

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء ثان ، والشعور الحاد القوي شيء ثالث . حسن جميل أن تقرر الحق لأربابه ، وتوضح لهم معالمه ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته ، وأن تجعل صورته في نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به . فهل صنع الإسلام شيئاً لكي يغرس هذا الشعور الأبي في نفوس الأفراد ويوقد ناره في قلوبهم؟.

نعم . إن الإسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظرياً في هذه الحصانة الإنسانية ، ولكنه أخذ يهيب به أن يدافع عن هذا الحق ، وطفق يحرّضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه وأن يضحي بنفسه في سبيله . ألا فلتسمع صوت نبي الإسلام – عليه الصلاة والسلام – : (من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد) .

هل سمعت أقوى من هذا إلهاباً وتحريضاً ؟. بل لنستمع إلى كتاب

الإسلام حين ينعى على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعاً في السلام ورضاءهم بالهوان خوفاً من فراق الأوطان : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً »[1] . هل سمعت أشد من هذا وعيداً وتهديداً ؟ .

قلنا : إن الكرامة الإنسانية – قبل كل شيء – سياج من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة ، تعصم صاحبها من أن يهون على الناس ويضيعوا حقاً من حقوقه ، أو ينتهكوا حرمة من حرماته .. ذلك هو جانبها السلبي الخارجي الدفاعي . أما في حقيقتها الايجابية الانبعاثية ، فإنها تاج من الشرف والنبل ، يتقاضي صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة احترام وتكريم ، نظرة يعرف بها أن مكانته في هذا العالم كأنه السيد لا المسود لا أعني سيادة الإنسان على الإنسان ، فالناس في نظر الإسلام كلهم إخوة كلهم سيد في نفسه لا سيادة لأحد على غيره ، ولا سيادة لغيره عليه ، وإنما هي من جهة سيادة عالمية ؛ يسيطر بها المرءُ على مختلف الأشياء في البر والبحر والهواء . ألم يسخّر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً ، ولم يسخَّر هو لشيء منها ؟ .

ثم هي من جهة أخري سيادة ذاتية ؛ لكل فرد فيما بينه وبين الناس

(١) سورة النساء : ٩٧ .

سيادة تسوي رأسه برؤوسهم ومنكبه بمناكبهم . ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الإنسانية : كرامة الحرية والعزة التي تأبى لصاحبها أن يهون على نفسه ، وأن يذل لمخلوق غيره كائناً من كان .

هذه المرتبة من الكرامة هي كسابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الإنسان ، غير أنه لا يشعر بها على تمامها ولا يقدرها حق قدرها ، إلا المؤمن الموحد الذي لا يعرف السجود لحجر ولا شجر ولا لشمس ولا لقمر ولا لملك ولا لبشر ، وهكذا يضم كرامة الإيمان إلى كرامة الإنسان : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »[١] .

وأخيراً نرتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة إلى مستوى السلوك والسيرة ، فنلتقي بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرءُ إنشاءً ، ويكتسبها اكتساباً بما يختطه لنفسه من نهج حميد ، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مسترشداً بأمر ربه وهداه ، محاذراً من خدع شيطانه وهواه . تلك هي كرامة العمل الصالح المصلح ، وأنها لعلى درجات متفاوتة تسير طرداً وعكساً على نسبة الإتقان والإخلاص في العمل: « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »[٢] .

اللهم كما رزقتنا كرامة الإنسان وكرامة الإيمان، فارزقنا كرامة الإحسان.

اللهم آمين .. آمين .

---

(١) سورة المنافقون : ٨ . (٢) سورة الحجرات : ١٣ .

فاكهة المجالس

« الغيبة »

اللهم لك الحمد ، منحت عبادك التصرف الكامل ، من اهتدى وسلك سبل السعادة نجا ، ومن اغتاب جوزي بمثل فعله .. اللهم صل وسلم على من حذر أُمته من الغيبة ، محمد بن عبد الله ، وارض اللهم عن أصحابه وآله الطيبين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

إنها فاكهة مسمومة – ونغمة خداعة مشئومة .

تلك هي فاكهة المجالس السامرة لا يشبع طاعمها ، ونغمة أحاديثها الساخرة لا يمل سامعها . ولكم سألت نفسي عن مجلس لا تقدم فيه هذه الفاكهة ، ولا يسمع فيه هذا النغم ! ولقد طال بي انتظار الجواب ، حتى ظننت الأمر مرضاً وبائياً قد اندلع لهيبه في كل مكان ، فمن لم تصبه ناره أصابه دخانه ، يتلقاه سمعه إن لم يتلقفه لسانه ، بل كدت أظن أن هذا الأمر وليد فطرة البشر ، أو ربيب حياة المجتمع ، وأنه ما دامت الشكوى منه متصلة في كل بيئة وعصر فلا طب لدائه ، ولا أمل في شفائه ! .

ولكني سمعت الله تعالى يصف المؤمنين المفلحين : « الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » ، ويصف عباد الرحمن الذين « إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

كِرَاماً » ، فقلت : لا شك أن في الناس بقية من الخير ، ثم نظرت إلى الجيل الأول من سـلف هذه الأمّة الذين أدّبهم محمد بأدب القرآن فرأيتهم قد بلغوا من طهر الحديث وعفة القول أن الكلمة الواحدة من السخرية كانوا يعدّونها كأكبر الأعمال الفاجرة ، وهكذا ازددت إيماناً بجوهرة هذه النفس الإنسانية ، وما فيها من عناصر نبيلة ، وطاقات كمينة ، وتراءت لي الآفاق العليا التي تستطيع أن تسمو إليها هذه البشرية الحائرة لو تحقق لها اثنان لا ثالث لهما : قيادة رشيدة توجهها الوجهة السليمة ، واستجابة صادقة تمتد فيها الأيدي لمصافحة تلك اليد البرة الرحيمة ، فمتى تجاوبت هكذا نفسية الداعي والمدعو ، ومتى منح الطبيب مريضه نصحاً وشفقة ، ومنح المريض طبيبه طاعة وثقة ، فهنالك تلتقي الكهرباءُ الموجبة والسالبة ، فيتولد من بينهما ما شاء الله من حركة وحياة وما شاء الله بعد ذلك من وثبات فسيحات نحو المعالي والأمجاد .

وهنا أخذت أتساءل عن الأسلوب الحكيم الذي اتخذه طبيب النفوس الأعظم ، ليطهر نفوس المؤمنين ومجالسهم من هذا الإثم ، فوجدته قد سلك إلى ذلك مسالك عدة : دعاهم باسم الحجة والبرهان ، ثم دعاهم باسم الإيمان ، ثم دعاهم باسم الحس والوجدان .

دعاهم باسم الحجة والبرهان : أيها السامرون الساحرون الذين نصبوا أنفسهم حكماً فيما بينهم وبين الناس – فلأنفسهم أبداً الرضا والثناء والحمد ، ولغيرهم أبداً السخط والهجاء والذم – هل أعددتم أنفسكم

حقاً لمنصب هذا الحكم ؟. هل أحطتم علماً بما فيه تحكمون ؟. إنكم تعرفون من شئون الناس جانباً ويفوتكم منها جوانب . وإنكم ترضون من أنفسكم لمحات من الخير ، وتنسون فيها كثيراً من المعايب . فهلا بدأتم بالحكم على أنفسكم قبل أن تحكموا على غيركم ؟. وهلا شغلتكم عيوبكم عن عيوب إخوانكم ؟ . وهل أمنتم أن ينقلب الميزان عند الله فيكون الحكم عليكم لا لكم ؟ . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ » (١) .

ثم دعاهم باسم الإيمان :

أيها الهمازون اللمازون ، الغيابون العيابون ، إنكم لا تدرون كنه ما تفعلون ، ولو فكرتم قليلا لعرفتم أنكم لا تعيبون إخوانكم ، ولكن تسبون ربكم !. نعم . إن أكثر ما تتفكهون به من عيوب الناس هي عيوب لا ذنب لهم فيها ؛ عيوب ألوانهم . عاهات أبدانهم ، مظاهر فقرهم ورقّة حالهم ، خمول أنسابهم ، مهنـة آبائهم وأمهاتهم ، سوءُ أسمائهم وألقابهم !.

ألم تعلموا أن الله هو الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ، وركبه في الصورة التي اختارها له ، وأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاءُ ، ويقبضه عمن

(١) سورة الحجرات : ١١ .

يشاءُ ، وهو الذي قسم معيشة الناس . ورفع بعضهم فوق بعض درجات وهو الذي أخرج الناس من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، فلم يكن لأحد منهم الخيرة في نبل مولده أو خسته . وفي شرف بيئته أو ضعتها فمن تعيبون إذن ؟ . ألستم تعيبون الرحمن في صنعته ، وتتعقبون حكمه في تدبيره وأسلوب قسمته ؟ . أكفر إذن بعد إيمان ؟ . أعودة إلى الجاهلية بعد أن شُرفتم بنعمة الإسلام : « وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[1] .

وأخيراً دعاهم باسم الحس والوجدان المغروس في فطرة كل إنسان ، وها هنا كشف عن الأبصار غطاءها ، وأزاح عن الحقائق نقابها ، وأخرج جسم الجريمة ماثلاً في سوءة بادية ، تقذى بها العيون ، وريح منتنة ، تزكم منها الأنوف ، وطعم كريه تعافه الأذواق وتغثى منه النفوس .

نعم. من لم يعرف كنه جريمة الغيبة ، ولا حقيقة مرتكبيها ، فلينظر إليها وإليهم في مرآة القرآن ، هنالك يرى ، ويا لهول ما يرى : يرى خواناً ممدوداً قد أُلقيت عليه فريسة من البشر ، ويرى حول الخوان شرذمة جلودها جلود البشر ، وقلوبها قلوب النمر ، وقد جعلوا ينالون من هذه الفريسة ، لا رمياً بالسهام والنبال ، ولا طعناً بالخناجر والنصال ولكن قضماً بالأسنان ، ولعقاً باللسان ، فعل الضواري بالرمم !. أمن البشر تراهم إذن ، أم من فصيلة أخرى تأكل لحوم البشر ؟. ولو أنهم

(1) سورة الحجرات : ١١ .

لاقوا فريستهم وجهاً لوجه ، ونبذوا إليها على سواء ، لقلنا أن فيهم بقية من شهامة ، ولكنهم لقوها مجردة من كل سلاح ، عاجزة عن كل دفاع ، فأتوها من قبل ظهرها ، في ساعة غفلتها ، بل في وقت موتها فأقبلوا عليها نهشاً ومصاً وعرقاً ، فهل رأيت أفجر وأغدر ؟. أو هل رأيت أرذل وأنذل ؟. وما ظنك بعد هذا كله لو كان المأكول أخاً للآكلين ، أخاً في أُسرة النسب أو أخاً في أُسرة الدين ؟ .

تلك هي جريمة الغيبة كما صورها القرآن الكريم في كلمات بليغة خالدة : « وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً »[1] ؟ .

(1) سورة الحجرات : ١٢ .

الاســـلام والرق
« محمد محرر البشرية »

الحمد لله جعل الحرية من صفات المؤمنين . وصلاة ربي وتسليماته على من جاء بالكتاب المبين ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وإخوانه النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

أما بعد : فقد عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرّق كأنّما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرّق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار ! .

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟. وهل كانت حملته الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله ؟.

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذي أعلن كرامة الإنسان .؟ والاستعباد تبديل للفطرة فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذي هو دين الفطرة ؟.

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشئوا الرّق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم

أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها ؛ من طريق الخداع والتمويه ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد ، فعمدوا إلى استرقاق الأُمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضي القريب الذي يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبإٍ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع في الشرق والغرب : في اليونان وفي الرومان وفي غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرّق على مصراعيه ، فكان جزاءُ القاتل أن يكون عبداً لولي الدم !. وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه !. وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال !. ومصداقه في قصة يوسف : « قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ »[١] . وكان السلطان المطلق المخول لرب الأُسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبداً - الدهر - إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد حين جاء بالإسلام ؟ .

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة

---

(١) سورة يوسف : ٧٥ .

حكيمة منظمة ؛ كثورته على الخمر وثورته على الرِّبا وثورته على سائر الأنظمه الفاسدة المزمنة والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرّق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة !.

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ، إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقي في الدار ، لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ريثما يتيسر لهم الخروج منها . وسأُفسر لك ذلك .

فأما النطاق الذي ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة ، فذلك هو الدواء الواقي الذي وقف به سير الداء حتى لا تسري عدواه إلى غير المصابين ، ذلك هو القانون الذي منع به استرقاق الأحرار ، وأمنهم منه بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف والسلب ولا البيع والشراء ، ولا التغلب في المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ولا العجز عن وفاء الدَّيْن ولا السرقة ولا القتل – لم يعد شيء من ذلك كله – منذ ظهر الإسلام – يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان . ولم يكتف الإسلام

بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء ، إلا في حالة الاضطرار وخشية العنت . وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرّق القائم بالفعل أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها ، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها .

أما الشبهة فهي أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها – والتي كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد – قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة ؛ وهي التي يعتدي فيها الكفار على بلاد الإسلام ، أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذه الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحراراً وإما بقتلهم ؟.

والجواب : أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية . فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ؛ هو إطلاق سراحه ببدل أو بغير

بدل : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »[1] . كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الرحيم ، لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناءٌ طبق على الشاذين الخطرين . وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم عقوبة : مجرمي الحرب .

بقي الاسترقاق ، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة ، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطإ تحرير رقبة ؟ . إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة ، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات ؟ .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير ؛ فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاءً لخطره وكسراً لشوكته وشوكة قومه ، على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي ، وإنما يتخذه إجراءً مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ، ويلح في المطالبة بتحقيقه ألا وهو التحرير الكامل .

(١) سورة محمد : ٤ .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرّق ، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحها الإسلام لإخراج الأرقّاء إلى فضاء الحرية ، ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرّض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ »[1] . وقال – عليه الصلاة والسلام – : (مَنْ أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار) .

ومفتاح ثان هو مفتاح خزائن الدولة ، إذ جعل فيها سهماً مقرراً في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث ، هو مفتاح قانون الكفارات ؛ وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ؛ كالحنث في اليمين والفطر في رمضان والقتل الخطإ وغير ذلك . ومن أهم هذه الأنواع : كفارة الإساءة التي تقع من السيد في حق العبد نفسه ، وفي ذلك يقول رسول الرحمة : (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه) . هذا جزاء اللطمة أو الضربة ، أما الجرح أو تشويه الجسم فإن حكمه عند أكثر الأئمة أنه يصير العبد حراً بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالا فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

(١) سورة البلد : ١١ – ١٣ .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم .

لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أُغلقت دون الرّق بين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة في فترة الانتظار؟.

نعم . لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأُسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم ، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأْكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

هذا هو موقف الإسلام من الرّق :

١ ـ منع لإنشائه وابتدائه .

٢ ـ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ ـ عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته .

(أما بعد) : فهل من منصف يقولها معي : أما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام !.

الرسـول فى القـرآن

لك الحمد يا رب ولك الشكر سبحانك ، لا نحصي ثناءً عليك . والصلاة والسلام على رسولك الذي أنزلت عليه : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ »(١) . ورضي الله عن آله الأبرار وصحابته الأطهار ، والتابعين الأخيار .

أما بعد : فإن الإيمان بالرسول صنو الإيمان بالله ، وطاعة الرسول من طاعة الله ، وسنة الرسول بيان وتفصيل لكتاب الله ، والرضا بحكم الرسول شرط أساسي في صحة الإيمان بالله .

الإيمان بالرسول صنو الإيمان بالله : « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ويَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً أُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا »(٢) .

وطاعة الرسول من طاعة الله : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »(٣) .

وسنة الرسول بيان وتفصيل لكتاب الله : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٤) .

---

(١) سورة العلق : ١ .
(٢) سورة النساء : ١٥٠ .
(٣) سورة النساء : ٨٠ .
(٤) سورة النحل : ٤٤ .

والرضا بحكم الرسول شرط في صحة الإيمان بالله : « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً »(١) .

هكذا نرى الرسول في مرآة القرآن ، فليست كل مهمته أنه حمل إلينا كتاباً سماوياً ، وبلغنا نصاً قدسياً ، وكفى ، ولكنه إلى ذلك مشرع ومعلم وقاض وحاكم . وأن قضاءه وحكمه فهماً لروح القرآن ؛ كقضائه وحكمه تطبيقاً لنص القرآن ، كلاهما واجب القبول والنفاذ : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ »(٢) . « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(٣) .

ولسنا ننكر أن القرآن هو دستور الإسلام ، وهو أساس قوانين الإسلام ولكن هل يغني الأساس عن البنيان ؟. هل يغني الدستور عن القوانين النابعة منه ، والقواعد المنظمة له ؟. بل هل تغني القوانين والقواعد كلها عن مثال حي ، وزعيم أمين قوي ، تكون مسيرته هي القدوة الحسنى فينهج بتلك القوانين مناهجها المثلى ، ويتولى بنفسه تطبيق نصوصها ، وتحقيق مغزاها وروحها ، على الوجه الذي أراده واضعها الحكيم ؟.

إن الذي يزعم أنه سوف يستغني بكتاب الله عن سنة رسول الله

(١) سورة النساء : ٦٥ . (٢) سورة النساء : ١٠٥ .
(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

يعطل الكتاب والسنة جميعاً . نعم . إنه سوف يعطل كثيراً من نصوص القرآن ، فلا يستطيع فهمها .

أما تعطيله لحكم القرآن ، فذلك أن القرآن نفسه هو الذي قلّد الرسول منصب الزعامة والإمامة ، فجعله للناس قدوة بقوله وفعله ، وألزمهم طاعته في أمره ونهيه : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »(١) . « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(٢) . فمن أعرض عن سنته فقد عزله عن الإمامة التي ولّاه الله ، وقد استوجب العقوبة التي قررها كتاب الله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٣) .

وأما تعطيله لفهم القرآن ، فذلك أن القرآن يحيل في كثير من نصوصه على السنن العملية التي سنها الرسول – عليه الصلاة والسلام – أو التي سنها النبيون من قبله وأقرّها هو ، فلنسأل الذي يدعي الاكتفاء بالكتاب عن السنة : في أية آية من كتاب الله يجد بيان أشهر الحج المعلومات ، وأيام الرمي المعدودات ، والأشهر الأربعة المحرمات ؟. فإن لم نأخذ بيانها من السنة ، فهل تبقى هي بعد ذلك أموراً معلومة ، أو تصبح مجهولات مبهمات ؟ .

(١) سورة الأحزاب : ٢١ . (٢) سورة الحشر : ٧ .
(٥) سورة النور : ٦٣ .

بل إننا نسأل الذي يزعم هذا الزعم : كيف يريد منا أن نؤدي صلاتنا وزكاتنا ؟. فإن كانت كما يصلي الناس ويزكون قلنا له : أين تجد في كتاب الله صورة هذه الصـلاة ، في أسلوب افتتاحها واختتامها وفي ترتيب جلوسها وقيامها ، وفي عدد ركعاتها وسجداتها ؟. وأين تجد في كتاب الله صفة هذه الزكاة في مقاديرها ومواقيتها وحدود نصابها ؟ إن ذلك كله لا وجود له إلا في تعليم الرسول الأمين الذي بعث ليبيّن للناس ما نزل إليهم ، فهو الذي صلى ثم قال : (صلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصلِّي) رواه البخاري . وهو الذي أدى مناسكه ثم قال : (لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ) رواه مسلم .

أما أن يكون ذلك الزاعم يريد أن يكون منطقياً مع نفسه ـ كما يقولون ـ فليمح هذه الحدود والقيود في الشعائر كلها ؛ ولنفسه ولكل أحد أن يختار في عبادته الوضع والمنهج الذي يحلو له ، وعندئذ لن نلومه على تلك الفوضى التي ينفرط بها عقد الأمّة ، وتتفكك بها وحدتها الجامعة ، فلعل ذلك لا يعنيه ، وإنما نسأله : هل حقق بذلك وجهة نظره وهل استمسك بالنص الحرفي للقرآن في هاتين الفريضتين كما يدعي ؟.

اللهم لا . فإن القرآن لم يقل لنا : أقيموا صلاة ما ، وآتوا زكاة ما ولكنه قال : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » ، « وَآتُوا الزَّكَاةَ » فأشار إلى شيء معهود ووضع معيّن مقرر عند المؤمنين كافة ، بل صرح بذلك تصريحاً بليغاً فقال في مقدار الزكاة : « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ

وَالْمَحْرُومِ »[1] . وقال في صفة الصلاة : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »[2] أي فصلُّوا على الطريقة التي علمكم الله إياها ، والله ما علمنا إياها في القرآن ، وإنما علمها إيانا رسوله في بيانه للقرآن .

فانظر إلى هذا التشريف العظيم الذي رفع به القرآن شأن التعليم النبوي فسماه تعليماً من الله ، كما رفع شأن البيعة التي بايعتها الأمّة لنبيها فجعلها مبايعة لله : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ »[3] .

هما إذن وحيان : وحي نص إلهي يتلى في القرآن ، ووحي معنى توجيهي عملي في غير القرآن . وقد سمى الله كليهما أمراً سماوياً منزّلا ، فقال تبارك اسمه : « وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً »[4] ، فالكتاب هو القرآن ، والحكمة هي السنة ، فمن أعرض عنها فقد آمن ببعض الوحي وكفر ببعض .

نعم . إن الرسول في غير ما يوحي إليه بشر يخطئُ ويصيب ، ولكنه حتي في حال خطئه يمتاز عن سائر البشر بدرجتين اثنتين :

(الأولى) أن خطأه في الغالب إنما يسمى خطأ بالقياس إلى الحكمة

(١) سورة المعارج : ٢٤ .
(٢) سورة البقرة : ٢٣٩ .
(٣) سورة الفتح : ١٠ .
(٤) سورة النساء : ١١٣ .

الإلهية التي يمتاز بها علم الخالق عن علم المخلوق ، أما بالنسبة لعلم البشر فهو مثال الرشد والسداد .

(الأخرى) أنه حتى في هذه الفروق الدقيقة لا يستقر ولا يقر على ما هو خلاف الأولى ، بل لا يلبث الوحي أن يوجهه إلى ما هو أرقى وأسمى . وهو في كل مراتبه وحالاته قد فضله الله وآثره علينا ، وفرض علينا تكريمه وتوقيره في غير غلو ولا إطراء : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ »[1] ، « لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ »[2] . « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً »[3] .

اللهم إننا لا غنى لنا طرفة عين عن هدي رسولك المبعوث رحمة للعالمين .

اللهم فآته الوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد .

---

(١) سورة الفتح : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الحجرات : ٢ .
(٣) سورة النور : ٦٣ .

نشأة الرسول ﷺ

نحمدك اللهم ونستعين بك ونصلي ونسلم على رسولك محمد ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : في مطلع العام الثالث والخمسين قبل الهجرة ، وهو العام الحادي والسبعون بعد الخمسمائة ، من ميلاد كلمة الله عيسى بن مريم في فصل الربيع من ذلك العام ، بل في قلب ذلك الاعتدال الربيعي ، في العشرين من شهر نيسان – أبريل – في فجر ليلة مقمرة ، من ليالي التربيع الثاني من شهر ربيع الأول في الساعة التي يغيب فيها بدر السماء أو يميل إلى المغيب .

في تلك الساعة ، يتنفس الصبح في أرض مكة ، عن بدر إنساني هو أتم البدرين نوراً ، وأعظمهما يمناً وبركة .

وتجيءُ البشارة إلى عبد المطلب ، شيخ قريش وزعيمها بأن آمنة بنت وهب – زوج ولده الصغير عبد الله الذي فقدته منذ سبعة أشهر – قد أقرّ الله عينها بوليد صبيح الطلعة مشرق الجبين ، فيخف عبد المطلب ليسمع ويرى حفيده في مهده ، ويسمع من أمّه ما كان لها في حمله ووضعه من آيات اللطف والتكريم ، ولا تتم الأم حديثها حتى يتناوله جده منها فرحاً متهللا ، ويطير به ليؤدي واجب الشكر لله ، ثم يعيده إلى أمه .

وتجيءُ المراضع من البادية على عادتهن في التماس الرضعاء ، فلندع حليمة السعدية – رضي الله عنها – تقص علينا كيف قدّر لها أن يتربى في حجرها ذلك المولود الكريم ؟.

قالت حليمة ، فيما يرويه لنا محمد بن اسحاق وغيره :

قدمت إلى مكة في نسوة من بني سعد بن بكر في سنة شهباء – لا زرع فيها ولا مطر – ومعي زوجي ، وابن لنا رضيع ، ومعنا شارف – ناقة مسنة هرمة – والله ما تبض بقطرة لبن ، وصبينا يبكي لا ينام من الجوع ولا ننام نحن من بكائه ، فخرجنا نلتمس الرضعاء فوالله ما علمت امرأة منا إلا قد عرض عليها « محمد » فتأْباه ، تقول : يتيم ! وماذا عسى أن تصنع لنا أمه وجده ؟.

وكان أن أخذت كل امرأة رضيعاً ، وبقيت أنا لا أجد رضيعاً غيره فقلت لصاحبي – تعني زوجها – : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحباتي وليس معي رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم . قالت : فذهبت فإذا الطفل نائم ، فخشيت أن أوقظه ، فدنوت منه رويداً ، ووضعت كفي على صدره ، ففتح عينيه وابتسم ، وإذا ثدياي حافلتـــان باللبن فناولته ثديي اليمنى فأقبل عليها ، ثم أعطيته اليسرى ، فأبى ، فأعطيتها أخاه ، وكان ذلك دأبه أبداً ، لا يأْخذ إلا الواحدة ويترك لأخيه الأخرى .

لله أنت يا محمد !. أهكذا فطرت على القناعة والعدل ، وعلى كراهة الاستئثار بالفضل ، لقد طبت في المهد صبياً ، كما طبت رجلا سوياً والله أعلم حيث يجعل رسالته .

قالت حليمة : فلما أخذته إلى رحلي في مكة قام صاحبي إلى شارفنا – ناقتنا – فإذا هي حافل فحلبها ، فشرب وشربت وبتنا بخير ليلة . فقال صاحبي : يا حليمة . والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير ؟. قالت : ثم عدنا إلى باديتنا ، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، ولكننا منذ قدمنا به كانت غنمي تروح علي شباعاً حوافل حتى كان الناس يقولون لرعيانهم : اسرحوا حيث تسرح غنم حليمة . فتروح غنمهم جياعاً ، وتروح أغنامنا شباعاً ، ولم نزل نتعرف من الله الخير والزيادة طيلة مقامه عندنا .

ويبقى الرضيع عند حليمة زمناً بعد فطامه ، يتشبع من هواء البادية النقي ، وينطبع لسانه على لغتها الفصحى ، ثم يعود إلى مكة ليكون في حضانة أُمّه سنة أو تزيد ، حتى إذا سلخ السادسة من عمره فقد حنان تلك الأُمومة ، وانتقل إلى كفالة الجدودة والعمومة ، وهو في كل ذلك ينمو ويترعرع في رعاية الله ، وتتكامل قواه البدنية والعقلية ، وصفاته الخلقية والأَدبية سواء ، وألقى الله عليه محبة الناس ، وهم في عجب وإعجاب يتساءلون :

ما هذا الصبي الفتى الذي يشب شباباً لا يشبه الغلمان ؟. ما هذا الفتى

العفيف الحيي الذي يتجنب من عبث الشباب ومجونهم ما لا يتجنبه الشباب ؟. حتى الغناء والسماع إذا اتفق له شهود مجلس من مجالسهما السامرة لا يلبث أن يغلبه النعاس حتى يصبح !. يا عجباً لهذا الفتى الصدوق الوفي الذي لم تجرب عليه كذبة ، ولم تحفظ عنه زلة ، حتى اشتق لقبه من اسم الأمانة والوفاء ! ثم يا عجباً لهذه النظرات العميقة البعيدة ، وهذا الصمت المهيب الوقور !. تالله إن لهذا الفتى لشأناً ، إنه لا تقف به ها هنا همته ، ولا تحد بهذه الأرض نظرته ، لكأن الله يصنعه على عينه ليعده لأمر جلل ، كأنما يريد أن يجعل منه مثالا حيًّا ، توجد فيه المثل العليا ، وتقوم على هديه دولة الفضائل الكبرى !. فلننتظر ما يخبئه القدر لهذا الناشئ ، وما يخبئه القدر للناس فيه !.

هكذا كل من رآه منذ طفولته وصباه ، كان يتوسم فيه كل خير ويعقد عليه كل أمل صالح .

وتمر السنون ، فيصبح الناشئ يافعاً ، ثم يصبح اليافع فتى مجتمعاً وهذه الفضائل النفسية لا تزداد فيه إلا تمكناً ورسوخاً ، وتبرز فيه إلى جانبها فضائل من فصائل أخرى :

ألا تراه منذ الثانية عشرة من عمره يشارك الرجال في الأسفار واحتمال الأخطار ، وفي التجارة وتدبير المال ؟!. ألا تراه في سن العشرين يجلس جنباً إلى جنب مع شيوخ قريش وقادتها في مجالس التحكيم ، ويشاركهم في عقد الأحلاف والعهود المبرورة إنصافاً للضعفاء ، ونصراً للمظلومين

وكفالة للأمن والسلام ؟ !. ثم يكون زواجه في سن الخامسة والعشرين فرصة لظهور مواهب جديدة ، في جانب من حياته لم تكشف من قبل. نعم ، لقد برهن في مدى ربع قرن من حياته ، على أنه خير زوج وأكرمه وأبر والد وأرحمه .

وأخيراً يكون تحاكم القوم إليه ــ وهو في الخامسة والثلاثين بشأن الحجر الأسود ــ مظهراً لما كمن فيه من مواهب السياسة الرشيدة ، والقيادة الرفيقة والحكم العادل الحصيف الذي تأتلف عليه القلوب ، وتنطفئ به نيران الضغائن والحروب .

وهكذا جربت شمائله المطهرة ، في نفسه ، وفي أسرته ، وفي عشيرته وفي أسلوب سياسته وإمرته ، فبرز في كل مجال إنساناً كاملاً ، ولم تبق أمامه الآن إلا التجربة الكبرى التي تتجلى فيها ربانيته الكاملة ، كما تجلت من قبل إنسانيته الكاملة :

ها هو ذا يناهز الأربعين ، وها هي ذي لوحة روحه تصبح مرآة صافية تنطبع فيها الحقائق الغيبية ، حتى أنه لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم ها هو ذا تحبب إليه العزلة أحياناً عن ضوضاء الخلق ، ليأنس فيها بسر صوت الحق ، وما هو إلا أن فاجأه الحق في تلك الخلوة ، ليلقي إليه بمقاليد العلم والحكمة : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] .

إيه يا ابن عبد الله . يا أكرم خلق الله على الله . متى الساعة التي تكتحل فيها أعيننا بلقياك ؟. وما والله ما أعددنا لهذه الساعة كبير عمل غير أننا نحبك . ونحب من يحبك . ونحب العمل الذي يقربنا من حبك ، رضينا بربك رباً . وبدينك ديناً ، وبك نبياً ورسولا ، صلوات الله عليك ، وعلى سائر إخوانك النبيين والمرسلين .

---

(١) سورة العلق : ١ – ٥ .

الهجرة النبوية بداية عهد جديد للانسانية

الحمد لله الذي فضلنا إذ جعلنا من أمّة خير الأنام ، محمد بن عبد الله ، الذي أمره بالهجرة لإظهار الحق . ونصلي ونسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : إن تلك الهجرة المباركة كانت نقطة تحول جوهري في حياة الجماعة الإسلامية ، ذلك أن الإسلام في مكة كان ديناً بلا دولة وحقاً بلا قوة .

لم يكن المسلمون يومئذ يمثلون شعباً ، ولا جمهرة غالبة في الشعب أولئك أفراد يمتازون بصفاء عقيدتهم وطهارة أخلاقهم ، يعيشون في قومهم شبه غرباء ، ليس لهم في قيادة المجتمع قليل ولا كثير !. كان الحق والخير في جانبهم ، أما الأمر والنهي والسلطان والحكم ، فكانت بيد القوة الباطشة ، والمادة الجشعة ، والميول المستهترة ، فكانوا كلما خلا بعضهم إلى بعض ، تبادلوا الشكوى فيما بينهم من ظلم المجتمع وفساده وزيغ العقول وانحرافها وانحدار الأخلاق وإسفافها ، وجعلوا يتحرقون شوقاً إلى تحقيق المثل العليا التي بها يؤمنون ، والتي على شعاع من أملها يعيشون ، وما زال الحق منذ ظهرت سيماه على وجوههم ، يلاقي إعصاراً من قوة الباطل تريد أن تطفيء نوره في أول بزوغه ، وأن تقتلع شجرته

فور غرسها . ولكن الله آوى نوره إلى مشكاته ، فجعل ينتشر رويداً رويداً وصان شجرته الطيبة بصوان من عنايته ، فأخذت ترسخ أصولها ، وتمتد فروعها : « كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ »[1] .

وهكذا ، برهنت دعوة الإصلاح – بمقاومتها لهذه العواصف والأعاصير على أنها خلقت للبقـاء والخلود ، وأثبتت صلاحيتها للانتقال من حقول التجارب الضيقة في مكة ، إلى فضاء الأرض الواسعة وإلى الآفاق العالمية الإنسانية .

كان يوم الهجرة إلى المدينة إيذاناً بأنه قد آن للحق المستخفي أن يظهر ويعلو ، وللحريات المكبوتة أن تتنفس ، وللعدالة المضيعة أن تقف على قدميها ، وأن تمسك ميزانها بيديها ، وللجماعة المستضعفة الخائفة أن تتبدل من خوفها أمناً ، ومن ضعفها قوة ، فأصبح اسم الله يذكر من أعلى المنابر ، بعد أن كان يذكر سراً أو نجوى ، وأصبح لأنصار الحق دولة ، بعد أن كانوا قليلا مستضعفين في الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، وهكذا كانت الهجرة المحمدية فاتحة يمـن في تاريخ الجماعة الإسلامية .

وأما أن هذه الهجرة المباركة كانت – في الوقت نفسه – مفتاح سعادة للبشرية كلها – فذلك أمر يعرفه كل من عرف الأسس الجديدة التي قامت

(١) سورة المائدة : ٣ .

عليها دولة الإسلام الناشئة . وعرف القواعد التي جاء بها دستور الإسلام في عهده الجديد .

فالدولة الإسلامية الناشئة – وهي دولة دينية في كنهها وطبيعتها ومنابعها ونوازعها ، وأهدافها . قامت – أول كل شيء – على احترام حرية الأديان جميعاً ، ما دامت لا تستعمل أساليب العنف في دعوتها .

ولقد عرف تاريخ الإنسانية – في القديم والحديث – دولا مدنية جعلت بينها وبين الأديان كلها شقة حيـاد ، وكان طبيعياً أن تترك لرعاياها الحرية في اختيار ما شاءوا من الملل والنحل . وعرف التاريخ أدياناً وعظية تبشيرية ؛ لا تستند في دعوتها إلى سلطـان الدولة ونفوذها فكان طبيعياً كذلك أن تبدي الشيء الكثير من التسامح تجاه الأديان الأخرى .

أما أن دولة تقوم على أساس دين معيّن ، ويستند هو إليها في صيانته ونفاذ أوامره ، ثم تجعل من أسسها الأولى كفالة الحريات العامة في العبادة والعقيدة والتعبير عنها لأنصارها ومعارضيها على السواء – فذلك مثال ليس في التاريخ إلا في دولة الإسلام .

هذا الفتح الإنساني الجديد – إنما جاء به التاريخ الهجري الميمون .

وها هو ذا فتح آخر أعظم منه ، جاءت به هذه الدولة الدينية الناشئة نفسها ، ذلك أنها أسست من أول يوم على فكرة « الوطن » بأدق وأحدث

معاني هذه الكلمة . فالوطنية – في قاموس المدنيات الفاضلة – مبدأ يؤاخي بين سكان البلد الواحد من مختلف الأجناس والعناصر والأديان والمذاهب والنزلاء منهم والمستوطنين ، ويقف بهم جميعاً أمام قانون العدالة على قدم التساوي في جميع الحقوق والواجبات القومية ، هذا المبدأ المثالي، الذي يحلم به أنصار الإنسانية العالمية، والذي لا يزال دون تحقيقه في عصرنا هذا شوط بعيد ، حتى في أشد الدول تحمساً له وأكثرها زهواً وافتخاراً بمبلغ تقدمها في الحضارة ، هذا المبدأ المثالي – جعله الإسلام حقيقة ماثلة في غداة الهجرة الكريمة :

فلأول مرة في تاريخ الدول الدينية رأينا في المدينة المنورة أمّة واحدة متآخية ، تضم بين جنباتها العربي والفارسي والرومي والوثني واليهودي والمسيحي والمجوسي والصابئي ، شعارهم جميعاً تحت راية الإسلام : الدين لله ، والوطن للجميع .

أما الهدية العظمى والنعمة الكبرى التي منحتها السماء أهل الأرض على أثر الهجرة النبوية ، والتي لم تظفر البشرية بمثلها من قبل ولا من بعد ، فإنها تتمثل في الدستور الجديد الذي جاء به الرسول المهاجر – صلوات الله عليه – فقد كان التشريع في مكة يهدف إلى ثلاثة مقاصد لا زائد عليها : إصلاح العقيدة ، وتحديد بعض رسوم العبادة ، وإرساء القواعد الأولية لمكارم الأخلاق ولا سيما في السلوك الشخصي .

فلو أن مهمة الدعوة الإسلامية ختمت قبل يوم الهجرة ، ما كان

للتشريع الإسلامي كبير فضل على غيره من التشريعات ، ولحرمت الإنسانية إذ ذاك الشطر المدني لهذا التشريع ، وهو أنفس الشطرين وأدقهما وأحوجهما إلى الإرشاد السماوي ، ذلك أنه منذ الهجرة قد تشعبت مصالح الأمّة الناشئة ؛ اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ودينياً .

فجاءت التشريعات الجديدة وافية بكل هذه الحاجات ، فضلا عما أضافته إلى المقاصد المكية من تفصيل وتحسين وتكميل ، وهكذا لم تغادر مجالا للنشاط العملي أو الفكري في الحقائق العليا إلا فصلت فيه بين الخير والشر والحق والباطل ، في نصوص وقواعد هي آية في السداد والحكمة ، وهي في الوقت نفسه غاية في المرونة والمواءمة لظروف الإنسانية في جميع بيئاتها وعصورها . مهمة خطيرة ، بل معجزة كبيرة يعترف علماء التشريع المقارن بأنه قد عجزت عن بعضها سائر التشريعات السابقة واللاحقة ، ولم ينهض بها على الوفاء والتمام إلا الشريعة الإسلامية في عهدها الهجري السعيد ، ومن أجل ذلك استحقت أن تنعت في ختام الأمر بأنها : الدستور الكامل .

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » .

هـذه قبسات من أنوار الهجرة المشرقة ، ونسمات من بركاتها على الناس عامة ، وعلى العالم الإسلامي خاصة .

وإنه ليسعدنا ـ أبناء الإسلام بوجه أخص ـ أن نحتفل بذكرى يوم الهجرة ، ونحن في فاتحة عهد جديد للإصلاح ، نقتفي الخطوات الأولى للمصلح الأول ، والقائد الأعظم محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم .

على أننا لن يكمل اغتباطنا ولن تتم قرة أعيننا حتى نتابعه في سائر خطواته ، فنعود إلى الاغتراف من ينبوع دستوره الخالد في كل شئوننا وتصرفاتنا ، وما ذلك على أبطال النهضة بعزيز .

كيف هاجر الرسول ﷺ

لك الحمد يا إلهي ، ولك الشكر ، ولك الثناء الجميل . عززت دين الإسلام بهجرة سيد الأنام .. اللهم صل على عبدك ورسولك الذي هاجر من وطنه إلى المدينة ، ابتغاء وجهك الكريم ، ولإعلاء كلمتك .. وعلى آله وأصحابه ، ذوي الفضل والجاه ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : تنطوي الساعات والأيام ، وتعقبها الشهور والأعوام ، والحق ماض في دعوته وجهاده ، والباطل سادر في مقاومته وعناده ، وتتطور المقاومة ، فتخرج من موقفها السلبي بإزاء الدعوة المحمدية إلى موقف إيجابي عدواً بإزاء أنصارها ، فإذا الإنكار والتكذيب تنكيل وتعذيب وإذا الإباء والعناد تشريد واضطهاد ، حتى صاحب الرسالة نفسه ـ وهو من هو مهابة وحسباً ـ لم يمنعه حسبه وعزته في قومه من طيش المعارضة ونزقها . يقول عبد الله بن عمرو بن العاص : بينما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه وجعل يخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي قائلا : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » (١) .

ولم تكن القرى حول مكة أكرم منها استقبالا للدعوة ، ولا أرفق منها رداً على صاحبها ، وتنطوي الساعات والأيام تتبعها الشهور والأعوام والفلك يدور هكذا دورته بأساً وبؤساً . وحيفاً وخوفاً ، فما نال ذلك من عزيمة الداعي ولا أيأسه من نجاح رسالته ، ها هو ذا لا يزال يمد بصره إلى الآفاق البعيدة ، ويتلمس لبضاعته السماوية أسواقاً جديدة ، ها هو لا يزال يتلقى الوافدين في مواسم الحج كل عام ، يبتغي عندهم الإيمان أو الأمان وأخيراً في السنة الحادية عشرة من النبوة – أعني قبل الهجرة بعامين وبعض العام – برقت بارقة من الأمل ، وهبّت نسمة من ريح النصر في أعطاف نفر من أهل يثرب – المدينة – التقوا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – في موسم الحج ليلا عند العقبة بمنى ، فلما دعاهم إلى الإسلام شرح الله له صدورهم ، وحملوا دعوته إلى من وراءهم ، فأخذ الإسلام ينتشر بين أهل المدينة ، وازداد عاماً بعد عام عدد الوافدين منهم لملاقاة النبي في موسم الحج ؛ كانوا ستة نفر في أول الأمر ، فأصبحوا في العام الثاني اثني عشر بايعوه على التوحيد ومكارم الأخلاق ، ثم صاروا خمسة وسبعين في الموسم الثالث ، وفي هذه المرة عاهدوه على أنه متى انتقل إليهم هو وأتباعه منعوهم مما يمنعون منه أنفسهم وأتباعهم .

---

(١) سورة غافر : ٢٨ .

فكانت هذه أول محالفة دفاعية أصبح بها للإسلام أعوان وأنصار بل أصبحت له دار يجد فيها الحرية والأمن والاستقرار ، فماذا يمنع المسلمين في مكة من التحول إلى تلك الدار ؟ .

هكذا قال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (إِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَاناً وَدَاراً تَأْمَنُونَ فِيهَا) . وأمرهم باللحاق بإخوانهم من الأنصار في المدينة ، فجعلوا يخرجون إليها ليلا أرسالا ، ولكن النبي – عليه السلام – أقام في مكة ينتظر إذن ربه في الخروج ، وكان أبو بكر يتجهز إذ ذاك للرحيل . فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – : على رسلك . فإني أرجو أن يؤذن لي . فأجّل أبو بكر رحله انتظاراً لمرافقة النبي ، وكان عند أبي بكر راحلتان فجعل يعلفهما ويجهزهما ، جعل ينتظر إشارة الرسول يوماً بعد يوم حتى مضى زهاء أربعة أشهر .

ولندع عائشة – رضي الله عنها – تقص علينا كيف تلقوا أمر الرحيل قالت عائشة :

لم يمر علينا يوم إلا يجيئنا فيه الرسول طرفي النهار بكرة وعشية .. قالت : فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة ، في ساعة لم يكن يجيئنا فيها ، قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متقفعاً . فقال أبو بكر : فداه أبي وأمي . والله ما جاء في في هذه الساعة إلا لأمر . قالت : فجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال : « يا أبا بكر ، أخرج من عندك – يشير

إلى خطورة الأمر وسريته – فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنما هم أهلك .
قال : فإني قد أُذن لي في الخروج » .

نعم . بعد انتظار أربعة أشهر أو زهائها يؤذن له اليوم ، واليوم فقط في الخروج ، فما خطب هذا اليوم بين الأيام ؟. إنه هو يوم تنفيذ المؤامرة الغادرة التي بيّتها المشركون بالأمس في دار الندوة ، فأظهر الله عليها نبيه وأمره ألا يبيت هذه الليلة على فراشه ، فبـات عليّ في مكانه ، وخرج النبي إلى بيت أبي بكر ، فاصطحبه إلى غار ثور ، فاختبأ فيه ، وباتت عصابة المشركين على باب محمد يترقبون خروجه ليقتلوه ، فلما أصبحوا أُسقط في أيديهم إذ رأوا علياً لا محمداً ، وعبثاً حاولوا أن يعرفوا منه مكان صاحبه ، لأنه لم يكن ليعرف أين ذهب . فانتقلوا يقتفون أثره في كل سبيل حتى وقفوا على الغار ، فلو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرأى محمداً وصاحبه ، ولكن الله أضل الكافرين وأعمى أبصارهم ، وأيّد عبده بجند من عنده ، ومن يرد الله عصمته عصمه ، ولو في أوهن البيوت بيت العنكبوت ، ومن يرد أن يمسه بسوءٍ لم تمنعه البروج المشيدة ولا الجنود المجندة !.

وهكذا لبث ضيفا الغار في كلاءة الله ورعايته ، حتى جاءتهما الراحلتان في الموعد المضروب بعد ثلاث ليا ل ، فانطلقا تلقاء المدينة ، ومعهما خادم ودليل : الخادم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، والدليل رجل وثني ، ولكنهم عرفوا فيه الأمانة والوفاء !.

وكانت قريش قد جعلت لمن يقتل محمداً أو يـأسره جائزة عظيمة قدر ديته ، فتفرق الناس يقتفون أثره ، ولكن الله كف عنه أعين الناس وأيديهم حتى أن سراقة بن مالك وهو القائد الوحيد الذي اهتدى إلى طريق الموكب المهاجر ، ما كاد يلحق بهم حتى صرعه فرسه أكثر من مرة فحوّل الله قلبه إذ ذاك تحويلا ، لقد جاء حرباً على الرسول ، فأصبح الآن سلاحاً للرسول ، إذ وقف في الطريق ليوجه المقتفين لأثره وجهة أخرى .

وتابع الرسول سيره حتى أبلغه الله مستقره ومأمنه ، هنالك تحولت دورة الفلك يمناً ويمناً ، وتحولت صفحة التاريخ تمكيناً للدين وأمناً ، فلئن كانت مكة في غيظها وحسرتها قد ودّعت نبيها ذلك الوداع الغادر – لقد استقبلته المدينة في بهجتها وغبطتها استقبال الفاتح الظافر ، ومن يومئذ رفع الله للإسلام مناره ، وأتم له نوره ، فأصبحت كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم .

رحلة رسمت خطتها على عين الله في فاتحتها وفي خاتمتها وفي كل خطوة من خطواتها ، وإن أنس من الأيام فما أنسي منها يومين : يوماً وقف الأعداء على فم الغار ، وقد اشتد الكرب والحزن على أبي بكر ولكن محمداً في سكينة وطمأنينة يقول لصاحبه : « لا تحزن إن الله معنا » ويوماً اشتد الطلب على أثرهم بين مكة والمدينة ومحمد على راحلته يقرأ القرآن ، وينظر دائماً إلى الأمام لا يلتفت ، وأبو بكر على راحلته يكثر الالتفات ، حتى إذا أحس أبو بكر بالعدو من خلفهم قال : يا رسول الله

هذا فارس يعدو وراءنا ! فلم يزد محمد على أن قال : « اللهم اصرعه ». ثم مضى في قراءته . فليت شعري ، ما هذا الأَمن في ساعة الخوف ؟. ما هذا الثبات والسكون حين تزيغ الأَبصار وتبلغ القلوب الحناجر ؟. من أنت يا محمد ؟. أَلست بشراً من البشر ؟!. هل كانت في يمينك تصاريف القدر ؟!. أَلا إنه لو لم تكن في سيرتك آية لكان حسبك هذان الموقفان : آية على منزلتك من ربك ؛ فهو الذي أَنزل السكينة في قلبك ، وهو الذي جعل الهدى والرشاد قرين عزمك ، وهو الذي أَخرجك مخرج صدق وأَدخلك مدخل صدق ، وهو الذي جعل لك من لدنه سلطاناً نصيراً .

فسلام عليك رسول الله ، ما أَشد شوقنا إلى لقائك ! وما أَسعد يوماً نقف فيه تحت لوائك ، وننتسب فيه إلى ولائك !. ثم ما أَطيب مقاماً نحظى فيه بجوارك ، ونقتبس فيه من أَنوارك !.

اللهم اسمع واستجب .

هجرة الرسول في القرآن

نحمد الله العلي القدير على ما أَولانا من عظيم نعمه . وصلاة ربي وعظيم تسليماته على من خصه بالتبيان . وأَنزل عليه القرآن .. وعلى آله وأَصحابه أَهل الفضل والإِحسان .

وبعد : إن الإِيمان والأَمل توأَمان . والإِيمان والعزة صنوان . لا يجتمع في قلب واحد إيمان ويأْس: «إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ». ولا يجتمع في قلب واحد إيمان ومهانة نفس : « وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ». فإذا رأَيت الرجل يقبل خطة الذل والهوان . وهو صابر عليها مطمئن إليها ؛ او رأَيته يقيم بدار كفر لا يمكن فيها من إعلان عقيدته ولا من أَداء فرائضه . وهو قادر على أَن يتحول عنها ثم لم يفعل . فاتهمه في دينه أَو في عقله . أَو فيهما جميعاً .

اتهمه في دينه ؛ إذا كان فراق المال والوطن والأَهل والسكن أَشق على نفسه من مغاضبة ربه . والتنكر لضميره وكرامته !.

واتهمه في عقله ؛ إذا كان يأْسه قد صور له أَن حياته رهينة بدار إقامته . وأَنه لن يجد وراءها مذهباً ولا منقلباً : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا »(1) . « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »(2) .

كل ذلك ليس من شأن المؤمن الممتلئ بعقيدته ، إنه لا يكون حبيس أرض ، ولا أسير عادة ، إن إيمانه وأمله وبعد همته توسع له من الأمور مضايقها ، وتفتح له مغالقها ، فإذا ضاق عليه أفق اتسعت له آفاق ، وإذا أغلق دونه باب فتحت له أبواب :

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً »(3) .

الفرار بالدين من الفتن ، والفرار بالكرامة من دار المهانة – تلك هي الهجرة في أرفع معانيها ، وهي من أول فرائض الدين ، وأول ثمرات الإيمان هذا في حق آحاد المؤمنين ، فما ظنك بزعيم المؤمنين ؟ . أليس أحق بها وأولى ؟ .

إن حمله أثقل ، وتبعته أعظم ؛ ذلك أنه ليس مسئولا عن نفسه وحسب ، ولكنه مسئول كذلك عن نشر دعوة ، وهداية أمة ، فإذا قدرنا أنه مكن في بلده من أداء واجبه الفردي في عقيدته وعبادته ، ولكن حيل

---

(1) سورة النساء : ٩٧ . (2) سورة التوبة : ٢٤ .

(1) سورة النساء : ١٠٠ .

بينه وبين واجبه الأعلى في إبلاغ رسالته ، أفليس حقاً عليه أن يلتمس مكاناً آخر يكون مصدر إشعاع لهذه الرسالة ؟ .

وهنا يحق للسائل أن يسأل : ما بال نبي الإسلام – عليه السلام – لم يلتمس هذا المخرج منذ اللحظة الأولى ؟. ما باله حين لم يجد من الملإ إلا صداً وصدوداً ، ونفوراً وتنفيراً ، ينأون عنه بأنفسهم ، وينهون عنه غيرهم ، ويقفون بالمرصاد لمن آمن منهم ؛ فكلما نبتت نابتة مؤمنة تلقوها بالتعذيب طوراً ، وبالتشريد طوراً ، بل تعدى أذاهم إلى عشيرته الأقربين ، وإلى شخصه الكريم ، ما باله إذن لم يخرج من فوره إلى أرض الله الواسعة ، بل ثبت في قومه يكافح عشر سنين دأباً ؟ .

ذلك بأن الله – جلت حكمته – لم يجعل مقام نبيه في مكة عبثاً ولا سعيه فيها هباءً ، فلقد كان يصنع القلوب فيها بقوله وفعله ، وكان للاسلام فيها كل يوم كسب جديد ، على الرغم من رعونة خصمه العنيد .

ذلك بأن الله – جلت حكمته – أراد أن يجعل منه ومن أصحابه السابقين الأولين مثلا في التضحيـــة والصبر ، ليعلم الناس أن طريق المجد ليس مفروشاً بالحرير ، ولا مغروساً بالأزهار والرياحين :

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ »(1) .

---

(1) سورة البقرة : ٢١٤ .

ذلك أن الله – جلت حكمته – حفظ عليه وعلى صحابته في هذه المحنة عقولهم وقلوبهم وشممهم وإباءهم . فلم يحنوا لها رأساً ، ولم يحبسوا من أجلها صوتاً . بل كانوا يصيحون بكلمة الحق مدوية في وجه الوثنية الساخطة الطاغية : الله أحد . الله الصمد !.

ذلك بأن الله – جلت حكمته – لم يشأ أن ينقله منها حتى يمهد له في خارجها نزلا كريماً . ومقاماً حميداً . في دار خير من داره ، وعشيرة خير من عشيرته جزاء صبره وجهاده .

من أجل ذلك كله لم يأذن الله لرسوله أن يغادر مقر منصبه أو أن يفارق مهد دعوته . إلا في الساعة الفاصلة . حين بلغت حمية الجاهلية قمتها . حين أرادت قمّة الكفر أن تجتث هذه الرسالة من منبتها ، حين قررت مكة أن تقتل هذه الدعوة بقتل داعيها . تلك هي المؤامرة الغادرة التي سجلها القرآن مفصلة . كما سجل فشلها وحبوطها . كل ذلك في ألطف إشارة . وأوجز عبارة : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »(١) .

نعم . لقد نفدت كل حيلهم في صد محمد عن دعوته . وفي فض أتباعه من حوله . لقد جرّبوا الوعد والوعيد . والملاينة والمخاشنة . والإيذاء والمقاطعة . فلم يغنهم كل ذلك شيئاً . هذه الدعوة التي لا تريد أن تتوقف في سيرها . ولا أن ترجع القهقرى . لقد أصبح لها أنصار

(٢) سورة الأنفال : ٣٠ .

في خارج مكة ، يزداد عددهم عاماً بعد عام ، فما الحيلة ؟ لا بد من اتخاذ تدبير حاسم . وهكذا اجتمعوا ليتشاوروا في أنجح الوسائل ، للتخلص من صاحب الدعوة – صلوات الله عليه وعلى آله – وتقدمت إلى المؤتمرين الاقتراحات الثلاثة التي أشار إليها النص الحكيم ، فيرفض اثنان منها بالإجماع ، وقبل الثالث بالإجماع ، قال قائل منهم : أرى أن نشد وثاقه ونودعه غيابة السجن حتى يأتيه الموت . ولم يكن هذا الرأي الذي تؤمن مغبته ، فإن أنصاره وعشيرته سيقاتلون دونه ، ولن يتركوه حتى يطلقوا سراحه .

وقال قائل : أرى أن نخرجه من بين أظهرنا ، ليكون شره بعيداً عنا . ولم يكن هذا الرأي خيراً من سابقه ، فإن محمداً قد أعطي من قوة الحجة وسعة البيان ما يوشك أن يؤلف حوله قلوب العرب ، فيستظهر بهم على أهل مكة .

وأخيراً قال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى جلداً ، وأن نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ليضربوه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل ، فلا يقدر هذا الحي من بني هاشم على حرب قريش كلها ، وإذن لا يسعهم إلا أن يقبلوا فيه الدية ، فنستريح منه ومن عاقبة قتله !.

نال هذا الرأي تأييداً إجماعياً وأعدوا العدة لتنفيذه ، وكان تدبير الله أسرع وأحكم ، فقد أوحي إلى نبيه – صلوات الله عليه وسلم – أن

يخرج من مكة في تلك الليلة الموعودة ، فخرج منها سراً هو وصاحبه أبو بكر – رضي الله عنه – وباتت العصابة المسلحة تحرس البيت عبثاً ، حتى أصبحت وهي تظن أن فيه ضالتها المنشودة ، ولكن الله خيب ظنها ووقى نبيه سيئات مكرها ، وكان هذا أول يومي النصر البارزين في هذا الحادث التاريخي . وكان اليوم الآخر هو يوم الغار ، حين وقف الأعداء على حافته . حتى أن أحدهم لو رفع قدمه لرأى محمداً وصاحبه ، وقد سجله القرآن كذلك في أشرف صورة وأكرمها : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَـةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

(١) سورة التوبة : ٤٠ .

يوم الهجرة النبوية

لقد اعتادت الأمم أن تجعل بداية تاريخها مولد زعيم ، أو نشأة قانون . أو انتصاراً في موقعة حربية ، أو حادثاً ذا شأن أياً كان في مجرى حياتها .

غير أن الأحداث والخطوب والأمجاد ليست كلها سواء في تحديد شخصية الأمة وبناء كيانها ، وإنما نجد في تاريخ كل أمّة ناهضة نقطة واحدة بارزة ، وحادثة فذة لامعة . تعد نقطة تحول في حياتها ، تخرج بها من الغفلة إلى اليقظة ، من التفرق إلى الوحدة ، من الضعف إلى القوة من خمول الذكر إلى نباهة الشأن ، من العزلة أو من السير في مؤخرة الأمم أو القافلة إلى السيادة والقيادة العالمية ، في تلك اللحظة الحاسمة من التاريخ تخلق الأمّة خلقاً جديداً ، وتولد قوتها ولادة جديدة ، هذا اليوم هو أحق الأيام بأن يتخذ مبدأ لتاريخ الأمّة .

وعلى هذا الأساس بني التاريخ الإسلامي .

وبهذا الطابع الإنساني المجيد يمتاز يوم الهجرة في كل عام من بين سائر الأيام ؛ فالمسلمون حين يرون الهلال في مطلع كل عـام هجري لا يرجعون بذاكرتهم إلى شعيرة خاصة من شعائر الإسلام ، ولا إلى حدث جزئي من أحداثه ، بل نقول : إنهم لا يرجعون بذاكرتهم إلى يوم نشأة

الإسلام . ولا إلى يوم ميلاد نبي الإسلام . فتلك الملابسات كلها لها تواريخها الموسومة في أيام أُخر معلومة ، وإنما يرجعون بذاكرتهم في رأس كل سنة قمرية إلى حدث وراء ذلك كله . إلى شأن يمس جوهر الأمّة الإسلامية نفسها . إلى اليوم الذي تقرر فيه وجودها وتحدد كيانها . إلى مولدها أُمّة . وإلى قيامها دولة .

والأمّة الإسلامية لم تولد يوم ولد نبيها . بل كان الإسلام نفسه يومئذ سراً مكنوناً في حنايا الغيب . وثمرة مطوية في أكمام المستقبل .

ثم ولد الإسلام بعد ذلك بأربعين سنة . فلم يكن ميلاد الإسلام كذلك ميلاداً لدولة الإسلام . ولا لأمّة الإسلام . بل بقي المسلمون بعد ذلك سنين عدداً ، وهم أعضاء متفرقة لا يضمها جسد ، ولبنات متناثرة لا ينتظمها بناء ، ولو نظرت إلى منزلتهم يومئذ عند قومهم لرأيتهم في أكثر الأمر على طرائق ثلاث :

إما معذب مضطهد ، يقاسي ألواناً من التنكيل والتمثيل .

وإما مشرد في أقطار الأرض يلتمس فيها مكاناً يؤويه .

وإما محاصر في شعب من الشعاب ، محروم من كل معاملة ، ومن كل مصاهرة ومعاشرة حتى الفترات القليلة ، التي كان يخلى فيها سبيلهم وتفك الأغلال والقيود عن حركات أبدانهم ؛ كانوا فيها معتقلي الألسنة مكبلي الحريات ، لا يمكنون من نشر دعوتهم ، ولا من إبلاغ رسائلهم

ورسالتهم . بل لم يكن لهم صوت يرتفع فيما بينهم بالنداء إلى الصلاة !

تلك كانت حال المسلمين قبل الهجرة . من أول لحظة إلى آخر لحظة فيها . وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً .

فلما جاءت ساعة الهجرة المباركة . وتمت النقلة الميمونة من مكة إلى المدينة . فهنالك وهنالك فقط أصبح حديث الإســلام تهتز به أعواد المنابر . وأصبح صوت الإسلام يشق الفضاء من أعلى المنائر . هنالك وهنالك فقط . أصبح للمسلمين دار تنسب إليهم ، وقاعدة يصدر عنها أمرهم ونهيهم . وقلعة حصينة يحمون بها ذمارهم !. هنالك وهنالك فقط أصبح المسلمون أُمّة لها كيانها البارز . ولها دستورها النافذ ، ولها رسالتها في الحياة : رسالة الإيمان بالحق والدعوة إليه ، والقيام بالعدل والتعاون عليه . . تلك هي الأمّة المسلمة التي أُخرجت يومئذ للناس ، استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ »[1] . تلك هي الأمّة التي نوّه الله بشأنها في كتابه المجيد : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ »[2] .

أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها .

إن ذكرى الهجرة إنما هي ذكرى ميلاد أُمتكم التي تعتزون بالانتساب إليها .

(١) سورة البقرة : ١٢٨ . (٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

أيها المسلمون : اذكروا – وأنتم تمرون بهذا اليوم المجيد – ما فيه من دلالات تاريخية كبيرة المغزى ، وما له من توجيهات إنسانية بعيدة الأثر .

أما دلالته التاريخية فإن بدء تاريخكم بعام الهجرة ، على حين قد بدأ نزول كتابكم قبله بثلاثة عشر عاماً ، وعلى حين كان مولد نبيكم قبله بثلاثة وخمسين عاماً ؛ معناه أن نشأة الأمم لا تؤرخ بميلاد زعيمها وإن عظم ، ولا بوضع دستور لها تترنم به ألسنتها ، وتشنف به أسماعها وتزين به مكتباتها ومعاهدها ومعابدها ، وإنما يبدأ وجود الأمم فعلا في اليوم الذي تصبح لها فيه وحدة عملية تحدد شمائلها وخصائصها ، وسيادة دولية تقوم على سلطانها ونفوذها . ودستور فعّال ينطبق على صغيرها وكبيرها ، ألا وإن عام الهجرة هو ذلك العام الذي أصبح المسلمون فيه سادة أنفسهم أحراراً في بلادهم ، ينظمون شئونهم وفقاً لدستورهم القرآن فتلك هي الدلالة التاريخية التي شرف بها السلف ، واعتز بها الخلف .

وأما التوجيه الإنساني السامي الذي نقتبسه من هذه الذكرى فهو أننا – لكي نكون جديرين بشرف الانتساب إلى هذا التاريخ ، وشرف الانتساب إلى الأمّة التي بدأت منذ ذلك التاريخ – يجب أن نبني كما كانت أوائلنا تبني ، وأن نصنع مثل ما صنعوا ، يجب أن نعمد إلى شخصيتنا فنصونها ونقويها ، وننقيها من شوائبها ، وأن نعمد إلى حريتنا فنستكملها وإلى سيادتنا فنحميها ، ولا نربط أنفسنا بعجلة غيرنا .

يجب أن نصوغ أنفسنا صياغة جديدة ، نقتبس عناصرها من أمجادنا ومقوماتنا ، من عقائدنا السليمة ، ومن شريعتنا الحكيمة ، ومن عواطفنا الإنسانية النبيلة ، ومن عوائدنا العفيفة الأبية الكريمة .

أيها المسلمون :

هذه ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين . والسلام على من اتبع الهدى .

مواطن العبرة من غزوة أحد

الحمد لله أعز الإسلام بحماته ، الحريصين على إعلاء كلمة الحق والذين جاهدوا في الله حق جهاده ، فهداهم إلى سبيل الخير والنصر والعز والشرف . ونصلي ونسلم على أفضل خلقه ، سيد المجاهدين وإمام الصابرين ، وأفضل الخلق أجمعين ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

وبعد : ستون آية من سورة آل عمران ، من قوله تعالى : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. »[1] . إلى قوله : « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »[2] . نزلت كلها بعد غزوة أحد تسجيلا لوقائعها وتفسيراً لأسبابها ونتائجها .

وغزوة أحد هي ثانية الغزوتين المشهورتين في صدر الجهاد الإسلامي والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى ، غزوة بدر ، تغمر قلوبهم عند ذكراها موجة من البهجة والغبطة ، لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود ذلهم واستضعافهم ، وسجلوا بها معجزة النصر على أعدائهم ، نصر القلة على الكثرة ، ونصر الضعف على القوة ، بل نصر قوة الحق والإيمان على قوة الجبروت والطغيان .

(١ و ٢) سورة آل عمران : ١٢١ – ١٨٠ .

ولكنهم حين يذكرون الغزوة الأخرى ، غزوة أحد ، يكادون يستقبلون ذكراها بملء قلوبهم حزناً وأسفاً لما أصابهم فيها من قرح ولما وقع لهم فيها من محنة وبلاء .

ولو فقه الناس لكان اغتباطهم بيوم أحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر . ذلك أن يوم بدر كان لوناً واحداً من الحظ ، وكانت فيه عبرة واحدة من معجزة النصر . أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطواراً ثلاثة وكان لكل طور منها سره وعبرته :

لقد كان أوله نصراً ظاهراً كيوم بدر ، بل كان النصر فيه أزهى وأبهر ، كان المشركون يوم بدر ألفاً وكان المسلمون يومئذ ثلثمائة ونيفاً أي أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم .

أما في يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف وكان المسلمون عند خروجهم ألفاً ولكن نقص عددهم في الطريق ، حيث تخلف عنهم عبد الله ابن أبي في ثلثمائة من المنافقين ، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضاً ، ولكن الله ثبتهما فأصبح جيش المسلمين سبعمائة فقط أي أقـل من الربع ، ومع ذلك فقد اكتسحوا أمامهم الآلاف الثلاثة وأثخنوهم تجريحاً وتقتيلا .

هذه هي الجولة الأولى أشارت إليها الآية العزيزة : « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ »[1] ، أي تحشونهم حش الأعشاب ،

(١) سورة آل عمران : ١٥٢ .

وتحصدونهم حصد الهشيم، وتستأصلونهم بإذن الله وتيسيره . فلننظر الآن كيف تحول الموقف ! .

لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم – صلوات الله عليه – حين بوأ المؤمنين مقاعد للقتال، وخصص لكل طائفة منهم مجالا لا تتخطاه – جعل فريقاً من الرماة فوق الجبل؛ يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه وأصدر أمره إلى هذا الفريق بأن يثبتوا في مراكزهم مهما تكن النتيجة قائلا لهم: (لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ نُصِرْنَا أَوْ غُلِبْنَا حَتَّىٰ لَوْ تَخَطَّفَتْنَا الطَّيْرُ). ولكن الذي حدث هو أنه لما فرّ المشركون منهزمين حتي وصلوا إلى رحال نسائهم، واندفعت كتلة جيش المسلمين تجمع الغنائم والأسلاب، ظنت فرقة الرماة أنه قد وضعت الحرب أوزارها، وأنه لن يكون للمشركين رجعة، فتحولت عن مراكزها، واتجهت بدورها إلى جمع الغنائم ! .

وهكذا تركت في ظهر الجيش ثغرة، فطن لها فرسان المشركين فتسللوا منها وتتابع القوم وراءهم ! .. هنالك أُخذ المسلمون على غرة من خلفهم فأصابهم الاضطراب والخور، وفرّ أكثرهم مصعدين في الوادي، أي منحدرين فيه لا يلوون على شيء، ولم يثبت إلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقليل من أصحابه التفوا حوله، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات، حتي نادى مناد أن محمداً كان من بين القتلى. فتراكمت بذلك ضروب الهم والغم على المسلمين؛ غم على ما فاتهم من

النصر بعد إحرازه، وغم على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل، وغم على تركهم الرسول خلفهم ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه .

وتلك هي الجولة الثانية التي يقول الله تعالى في شأنها :

« حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ . مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ »[1] . ويقول : « إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »[2] .

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أُحد إلا هاتين المرحلتين، وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذي يقترن في نفوسهم بذكرى هذه الموقعة لأنها في نظرهم قد انتهت بكارثة. هؤلاء الناس يسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها خطرها. وهي جولة لا يقدرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل في صهر النفوس، وشحذ العزائم ورفع الروح المعنوية في الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان. ولعمري لقد كان للوحي القرآني أكبر نصيب في إعلاء هذه الروح .

نعم. لقد حزن المسلمون في أول الأمر لما أصابهم، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن ناراً تحرق القلوب ولكنها كانت نوراً يضيء الطريق، لقد كانت ناراً وحسرات في قلوب

(١) سورة آل عمران : ١٥٢ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٣ .

المنافقين وضعاف النفوس ، أولئك الذين « أهمتهم أنفسهم » فجعلوا يقولون : « لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا »[١] . ولكنها عادت برداً وسلاماً في قلوب المؤمنين ، إذ مسح الله على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم : « ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ »[٢] . وما أن استيقظوا هادئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب مصابهم ويوازنون مغتبطين بين خسائرهم وأرباحهم ، ويتأهبون في الوقت نفسه للكر على أعدائهم ، لئن كان قد جرح منهم كثير لقد جرحوا هم أيضاً كثيراً : « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ »[٣] . ولئن كان استشهد منهم اليوم سبعون ، لقد قتلوا في الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين : « أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ »[٤] .

وفي الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم ، وأنه كان بشؤم معصية بعضهم لأمر القائد وتطلع بعضهم إلى عرض الدنيا .. ولكن ها هم أولاء يضمدون الآن جراحهم ، ويستعدون في عزم وحزم لملاقاة عدوهم لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم . ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم أن ولى الأعداء راجعين إلى ديارهم ، وتلك هي الجولة الثالثة التي أشارت إليها الآيات الكريمة : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

(١ و ٢) سورة آل عمران : ١٥٤ .
(٣) سورة آل عمران : ١٤٠ .
(٤) سورة آل عمران : ١٦٥ .

النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »[١] .

ويتساءل الناس بعد ذلك : لماذا لم تكن غزوات النبوة كلها انتصارات متتابعة دون خسارة كبيرة في الأرواح ؟ فيجيب القرآن الكريم : بأنه لو دام النصر هكذا لدخل الناس كلهم في الإسلام ظاهراً ، لا اقتناعاً بالحق ولكن انضماماً إلى صف المنتصرين . وإذن لا يتميز المؤمن من المنافق ، ولا يتبين من يعبد الله على حرف ممن يعبده في السرّاء والضرّاء . ولو دام النصر هكذا ما نال المجاهدون شرف التضحية ودرجة الشهادة ، ولو دام النصر هكذا لداخل نفوس المؤمنين شيء من الزهو والغرور ، ولو دام النصر هكذا ما انكشفت رؤوس الجريمة والفساد ، السفاكون لدماء أولياء الله ، المستحقون بذلك لمقت الله . وهكذا يقول الله ـ جلت حكمته ـ : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا »[٢] . « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »[٣] . « وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ »[٤] .

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٢) سورة آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٧٩ .
(٤) سورة آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١ .

ايمان ورجـولة ووفاء

نحمدك اللهم ونشكرك إذ هديتنا للإيمان. والصلاة والسلام على سيد السادات وسبب الخيرات، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه.

وبعد: كان أنس بن النضر – رضي الله عنه – غائباً عن غزوة بدر فأحزنه ذلك حزناً شديداً، وجعل يقول:

فاتني أول قتال شهده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ليرين الله كيف أصنع ؟.

فلما كان يوم أحد وانكشف الناس. قال أنس: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعني المشركين – وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني جيش المسلمين – ثم تقدم وهو يقول: وها ريح الجنة إني لأجدها دون أحد، ومازال يقاتل حتى قُتل. فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، حتى أن أخته لم تعرفه إلا ببنانه !.

هذا مثل من المثل العليا في التضحية والتفدية، لا يظفر التاريخ بمثله إلا في الفترات النادرة، وأنه ليحق لنا أن نسأل أنفسنا: ألم يكن بحسب هذا المؤمن المجاهد أنه أقبل حين أدبر الناس، وأنه خاض معركة يائسة انجفل عنها الناس، وأنه اقتحم صفوف الأعداء صادق العزم

ثابت الجنان، غير مكترث لضربات السيوف، وطعنات الرماح، ورشقات النبال وهي تتناوله من كل جانب ؟.

ما بال أنس بن النضر – نضر الله وجهه – حين أصبح كله جروحاً وقروحاً لم يربع على ظلمه. ولم يتخذ ذلك رخصة وعذراً له عند ربه ؟. ما باله أبى إلا أن يبذل في سبيل الله كل قطرة من دمه وكل خفقة من خفقات أنفاسه ؟!.

رب قائل يقول: أنه عرف قيمة الصفقة فأغلى لها الثمن. أليس الله قد اشترى منه ومن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟. فقد اختار هو أغلى الثمنين وأنفس المهرين والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

أقول: لو كان ذلك فحسب لكان أنس متطوعاً. والمتطوع أمير نفسه ولكانت له الخيرة في الوقوف عند الحد العادي في كفاحه. ولكنه كان قد عاهد الله من قبل أن يبذل في سبيله كل جهد، وألا يقنع في هذا البذل بما هو دون الأمد، فكان كلما وجد في صدره نفساً يتردد ربا في صدره الأمل، واتسع أمامه مجال العمل وقال في نفسه: ما أوفيت بعد بنذري، إذ ما زلت دون غاية جهدي، وما كنت لأضن على الله بهذه البقية الباقية من قوتي !.

فلما أنجز وعده، وأوفى كل الوفاء بعهده – استوجب من الله الثناء عليه وعلى أمثاله بمناقب ثلاث: الإيمان، والرجولة، والوفاء:

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »[1] .

لا ريب أن هذا المثل الأعلى في التضحية لا يطيقه كل الناس ، ولا كل المؤمنين ، ولا كل أولي العزم من المؤمنين . فهذا سعد بن معاذ يحدثنا أنه رأى أنساً يوم أحد وهو مقبل على خوض المعركة . فأراد أن يتابعه ويفعل كما يفعل .. قال : ولكني لم أستطع أن أصنع مثل ما صنع .

هم إذن درجات عند الله . وما منا إلا له مقام معلوم .

نعم ، إن أنساً كان قد ارتبط أمام الله بهذا العهد الشديد ، فكان حقاً عليه أن يوفيه . وليس كلنا قد أعطى هذا الميثاق الغليظ ، فهو في حقنا من نوافل الخير ، ومن مطالب الكمال .

غير أن في أعناقنا جميعاً أمام الله عهوداً ومواثيق دون ذلك ، إن صدقنا الله فيها كنا أهلاً لهذا الثناء الجميل ، وإن أخلفناها انقلبت هذه المناقب عيوباً ومثالب ؛ ضعفاً في إيماننا ، وخوراً في قوتنا ، ومطعناً في صدقنا ووفائنا .

ألا فليحاسب كل امرىء منا نفسه ، ولينظر في مبلغ صدقه لما عاهد عليه ربه .

فكلنا قد عاهدنا ربنا أول كل شيء على الإيمان به حين قال لنا : ألست بربكم ؟ قلنا : بلى .

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ .

وكلنا قد عاهدنا ربنا – في عقد الإيمان نفسه – على السمع والطاعة لأمره : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » .

وقد أخذ الله العهد على كل قائل ، أن يقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، وعلى كل كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فلا يبخس من الحق شيئاً ، وعلى كل كاسب أن ينزه كسبه عن الحرام والسحت ، وعلى كل شاهد أو قاض أو حاكم ، أن يقوم بالقسط ، فلا تحمله محبة أحد على محاباته وممالأته ، ولا كراهة أحد ، على الإجحاف به ومناوأته ، وعلى كل مجاهد ألا يفرّ من الصف ، وأن يثبت عند الزحف . وعلى كل من وكلت إليه أمانة في فعل أو صنعة ، أو منصب أو حرفة ، أن يتقي الله فيها حق تقاته : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ »[1] . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »[2] .

ثم أخذ الله على العلماء عهداً خاصاً أن ينصحوا ويبينوا ولا يكتموا :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »[3] . « أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ »[4] . ثم أخذ عليهم أن يعملوا بما علموا وبما

(١) سورة البقرة : ٢٨٣ .
(٢) سورة الأنفال : ٢٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٨٧ .
(٤) سورة الأعراف : ١٦٩ .

علّموا : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ »[١].

ثم أخذ عليهم عهداً أخلص ، أن يكون اعتزازهم بالله أقوى من اعتزاز سائر المؤمنين به . حتى لا يستعبدهم طمع . ولا تذل أعناقهم لبشر ، بل لله وحده : « وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ »[٢] .

وأخيراً جعل التواصي والتناصح بين الجميع حقاً مشاعاً . بل واجباً متبادلا . ليس أحد بأصغر من أن ينصح ، ولا أحد بأكبر من أن يُنْصح وتوعد المستكبر عن النصح الذي إذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم قال : « فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ »[٣] . « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »[٤] .

فهل وفينا بهذه العهود كلها ؟!.

ربنا أوزعنا أن نصدق عهدك ، وأن نوفي بوعدك .

ربنا واجعلنا أشداء على الكفار ، رحماء بيننا .. آمين .

---

(١) سورة البقرة : ٤٤ .
(٢) سورة آل عمران : ٧٩ .
(٣) سورة البقرة : ١٠٦ .
(٤) سورة العصر : ٣ .

تحويل القبلة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »[١] .

هذه الآية الكريمة في شأن القبلة الإسلامية نقطة التحول بين عهدين من التشريع : تشريع مؤقت ، كانت القبلة فيـه بيت المقدس . وذلك منذ قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة ، إلى نصف رجب من السنة الثانية . وجملة ذلك ستة عشر شهراً وثلاثة أيام وتشريع ثابت دائـم أصبحت به القبلة هي الكعبة البيت الحرام . وذلك منذ نصف رجب المذكور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والذي يقرأ هذه الآية وسابقاتها يلمس مقدار عناية القرآن بشأن هذا التشريع وأطواره . ففي بضع وعشرين آية يبسط القرآن قضية القبلة ويفصل فيها الفصل النهائي ، بعد أن يمهد لهذا الفصل ، تمهيداً شافياً

---

(١) سورة البقرة : ٤٤ .

كافياً . تبدأ الآيات الكريمة بذكر إبراهيم – عليه السلام – وأن الله جعله إماماً للناس ، وأمره ببناء البيت المطهر ، وجعله مثابة للناس وأمناً ، ومطافاً ومصلى . وبعد أن تقص الآيات كيف أن إبراهيم وابنه إسماعيل ، عليهما السلام – قاما برفع قواعد البيت كما أمر الله ، وبعد أن تنبه إلى الصلة الروحية والصلة النسبية ، بين هذين الإمامين وبين نبي الإسلام – تشير إلى أن تحول المسلمين عن قبلتهم السابقة المؤقتة ، إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل ، سيثير عند خفاف الأحلام ، وضعاف العقول شيئاً من الريب والشكوك . ثم تكر الآيات على هذه الشبهات نقضاً ودحضاً ، مجلية وجه الحق في هذا التشريع ، ثم تخلص من ذلك كله إلى إصدار نطقها الحاسم فيه : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » . ولا تكتفي بإصدار هذا الأمر السماوي مرة واحدة ، بل نراها تكرره وتؤكده ثلاث مرات في آيات متقاربة ، متوجهة إلى الرسول تارة وإلى المؤمنين تارة أخرى .

ترى ما سر هذا الاهتمام البالغ بتعيين القبلة وتوحيدها ؟. وما سر هذا التطور في تشريعها ؟. لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المنثورة ، التي لا يشترط في صحتها ولا في قبولها أن يتخذ الداعي وضعاً خاصاً من الأوضاع ، ولا أن يلزم أسلوباً معيناً من الأقوال والأفعال، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات ؟. ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفراداً وجماعات ؟. أليست

الصلاة صلة بين العبد وربه ؟. أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب والتماس المعونة منه ؟. أو ليس الله يسمع لمن حمده على أي وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »[1] .

هذه أسئلة تجول بالخواطر ، ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن يتجلى وجه الحكمة فيها . أجل إن قليلا من التأمل يهدينا إلى أن الله – جلت حكمته – حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد في أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إماماً نبياً نقتدي به وبمن ينوب عنه وحين أقام لنا بيتاً نتوجه إليه فيها بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا وبأبداننا . أراد بذلك كله أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علامتي الإيمان : المحبة لله ، والمحبة في الله . أراد ألا تكون الصلاة صلة واحدة بل مجموعة من الصلات ؛ صلة بين العبودية ، وصلة بينه وبين أئمته من المرسلين أو ممن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين .

هذه الرابطة الروحية المثلثة : بين المصلي وبين ربه ، وبين إمامه وبينه وبين سائر المأمومين ، هذه الرابطة الروحية كثيراً ما تتمثل في صورة مجسمة ، في جماعة حاضرة نراها رأي العين ، ونحس فيها تزاحم المناكب ، وتجاوب الأصوات وتناسق الحركات والسكنات .. حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن الأبصار والبصائر

(١) سورة البقرة : ١١٥ .

وإذا تجردت من الأشباح ، فإنها تبقى ماثلة في القلوب والأرواح ، ومن ثم لا ينبغي للذي يصلي في خلوته أن يظن نفسه منفرداً منعزلا في موقفه كلا ، بل ليذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ، ألوفا من الصفوف ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يشدون أزره ، ويؤيدونه في جوهر مطالبه ؛ إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتها ، ويرددون مقالته عينها إنه ليس فيهم من يقول : إياك أعبد وإياك أستعين . بل كلهم يقولون : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »[١] . ليس فيهم من يقول : إهدني . بل كلهم يقول : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »[٢] . وليس فيهم من يقول : السلام عليّ ، بل كلهم يقول : السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ .

هكذا ينبغي لكل مصل أن يعد نفسه عضواً في وفد الرحمن ، لا يناجي ربه بلسانه ، بل بلسان إخوانه المؤمنين ، الحاضرين منهم والغائبين .. ألا وإن الوحدة التي يرمي هذا التشريع إلى تحقيقها ، لأوسع مجالا وأبعد مدى من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر ، إنها تريد أن تنتظم في سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة ، بل نقول : إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية ، إنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشئ هذه القبلة إنشاء ، وإنما جاءت مصدقة ومقررة للقبلة التي أسستها النبوات السابقة . وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام

(١ و ٢) سورة الفاتحة : ٥ ، ٦ .

وسعة أفقه . وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها .

ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين : ففي المرحلة الأولى انضم إلى صف إخوانه من الأنبياء السابقين ، وفي المرحلة الثانية والأخيرة ، صعد إلى الأصل الأصيل ، إلى الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس ، منضماً بذلك إلى صف أبي الأنبياء ، الذي يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته ، وإن لم يستقبلوها في صلاتهم .

أما بعد : فلقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس ، وحسبوه لهواً وعبثاً ، أو حيرة وترددا ، وما هو بعبث ولا بتردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعداً نحو الهدف الأخير .

ولقد سمّاه علماء الظاهر نسخاً ، وما هو بنسخ إلا في الصورة والرسم أما في جوهره فهو التدرج في توحيد كلمة الأديان ، أرأيت الولد البار حين يسير قاصداً إلى بيت أبيه ؟. فإذا مرّ في طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما ، تطييباً لخاطرهم، ثم يكون مستقره في البيت المشترك الذي يحمل اسم الأسرة كلها ، فذلك مثل التطور الذي حدث في تشريع القبلة .

فبيت المقدس هو بيت الأخوة ، والكعبة هي بيت رأس الأسرة وهي منزل الجد الأعلى . وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين

القبلتين ، فإنه لم يكن همّه ذات القبلة في الأولى ولا في الثانية ، وإنما كان همّه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتحام بين أسوة المؤمنين في وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين المرسلين : « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »[1] . « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[2] .

اللهم اهدنا صراطك المستقيم وزدنا هدى .. آمين .

(١) سورة الأنبياء : ٩٢ .   (٢) سورة البقرة : ١٤٢ .

التفانى فى العقيدة

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وصلى الله على النبي محمد خير الأنام ، وعلى آله الأعلام وأصحابه الكرام ، أفضل الصلاة والسلام .

وبعد : آثار العقيدة في حياة الأفراد والأمم ظاهرة يدركها كل ذي عينين ، ولكنها تختلف ضعفاً وقوة ، وضيقاً وسعة تبعاً لحال العقيدة ذاتها ومدى سلطانها على النفوس .

فهناك عقيدة ضامرة ذابلة هزيلة ، قد زاحمتها شئون الحياة اليومية فألجأتها إلى حاشية من حواشي النفس وتركتها عاطلة لا عمل لها ، هامدة لا حراك بها إلا في فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق !. تلك وأأسفاه هي حالة العقيدة في نفوس بعضنا أفراداً وجماعات أليس من الناس من يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشتات متفرقون ؟. ويؤمنون بضرورة الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية وهم ضعاف متثاقلون ؟ . ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحاءُ حريصون على الحياة ؟. مثلهم في ذلك كله مثل المريض الذي يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء ، ولكنه تخذله عزيمته وتقعد به همّته عن تناوله !. فما غناءُ هذه العقيدة الجافة الميتة التي لا توقظ نائماً ولا تحرك ساكناً ؟ .

وهناك عقيدة نصف عاطلة : تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك ، ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه . مثال ذلك أننا نرى فريقاً من الناس يحسنون معاملة الخلق . ولا يحسنون معاملة الخالق ؛ يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمـانة ، ولا يشهد الزور ، ولا يجور في الحكم . ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعي الصلة بالله الذي خلقهم ورزقهم ، ولا يوجهون وجههم إليه ، ولا يعتمدون في شئونهم عليه ، ولا يذكرونه إلا قليلا !.

وترى فريقاً على العكس من ذلك – تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات ، ونوافل الطاعات – أنهم يتورعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة ، ولكنهم لا يتورعون أن يحكموا الهوى في أحكامهم ، وأن تنطوي على الحقد والحسد قلوبهم ، وأن يتهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه ، وتراهم – وقد أذل الحرص والطمع أعناقهم – لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة والصغار اجتلاباً لعرض من أعراض الدنيا ، واستبقاء لما في أيديهم منه !.

هؤلاء وأولئك إن كانت لهم عقيدة فهي عقيدة مصابة بشلل نصفي ويوشك أن يسري الشلل إلى نصفها الآخر !.

نعوذ بالله أن نكون من موتى العقائد أو مرضاها .

وأخيراً هناك عقيدة سوية قوية ، حيّة نامية ، يقظة واعية ، مسفرة مشرقة ، يغمر ضوءها جوانب النفس ، ويسري ماؤها في أغوار القلب

فهي للضمير مناره الذي يهديه سواء السبيل ، وهي للإرادة قوتها النازعة الوازعة ، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاتها وسكناتها ، ونحو أهدافها يتوجه في أقواله وأعماله ، يتلقي دائماً وحيها ويستلهمه ويتوخى إرشادها ويترسمه ، فإذا أصبح ذلك رأيه وديدنه صغرت في عينيه الدنيا وزينتها وتضاءلت في نفسه نوازع الهوى وحاجات الجبلة . فلا يفكر في مطالب شخصه إلا لماماً ، ولا يركن إلى الدعة واللهو إلا استجماماً . على أنه حين يلم بشيء من ذلك فإنما يتناوله باسم العقيدة والمبدإ ، وعلى النحو الذي ترسمه له العقيدة والمبدأ ، استعانة على الحق وتقوياً على الجد .

أولئك حقاً هم أصحاب العقائد والمبادىء ، فنيت أشخاصهم في عقائدهم وانمحت أهواؤهم في مبادئهم ، وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجسدة ومبادئ ماثلة تمشي في الناس ، وأولئك هم الذين لا تهمهم أنفسهم ، لأنهم باعوها لله بيعاً رابحاً ، أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة .

وهم بعد على مراتب متفاوتة ودرجات متصاعدة على قدر التبعات التي يحملونها وفي مستوى الآفاق التي يمتد إليها نشاطهم ، فليست مهمة الجندي كمهمة القائد ، وليست فضيلة الرشاد وحدها كفضيلة الرشاد والإرشاد مجتمعين ، وليس إصلاح المنزل والأسرة كإصلاح القبيلة أو

المدينة ، ولا قيادة الأمّة والشعب كقيادة الأمم والشعوب ، ولا هداية العصر والجيل كهداية العصور والأجيال .

كل ذي عقيدة حية فعالة يعرف من تجربته في نفسه أنه قد ينوء بحمل الواجبات المتنوعة التي تفرضها عليه عقيدته . هذا وهو جندي لا يسأل إلا عن نفسه ، فكيف إذا أصبح مسئولا عن نفسه وغيره معا وألقي عليه عبء الهداية والإصلاح فوق عبء الاستقامة والصلاح ؟. ثم كيف تزداد مسئوليته صعوبة وتعقيداً كلما ترقى في سلم الزعامة والقيادة؟. وأخيراً ، كيف تبلغ هذه المسئولية حد التعجيز والإحالة إذا انتهى إلى رتبة القيادة العالمية الخالدة ؟.

نعم . أي بصيرة تلك التي تنفذ من وراء الحجاب في هذا الأُفق ؟. وأي قلب يتسع لهذه المهمات الجلى ؟. وأي كاهل يقوم بهذه الرسالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كريم وتأييد عزيز ؟.

فلتكن هذه تحية متواضعة نحيي بها ذكرى الصالحين المصلحين الذين أسسوا تلك الدعوات الإصلاحية ، ونكرم بها خاتم النبيين وجامع كلمتهم ومتمم بنائهم محمد بن عبد الله – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – فلقد كان كل نبي منهم يدعو وينادي : يا قوم ، إني لكم نذير مبين . يا قوم : إني لكم ناصح أمين . حتى جاء محمد ، فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة وجعل ينادي : أيها الناس ! هذا نذير للبشر ، بل أيها الثقلان ، يا معشر الجن والإنس هذا ذكر للعالمين :

« وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ »[١] . أي ولأُنذر به كل من بلغه خبره وانتهى إليه أمره ؛ في عصره وفي سائر العصور إلى يوم يبعثون : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[٢] . « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »[٣] .

ألا من سره أن ينظر إلى أعظم وأدوم وأعم رسالة إصلاحية عرفها أو يمكن أن تعرفها البشرية ، وسره أن يرى كيف وهب لها صاحبها قلبه ولبّه ، وكيف ملكها ناصيته وجوارحه ، وكيف قام وهو في سن الأربعين أو زهائها واقفاً وحده في صف والعالم كله في صف ، فما زال بالأبواب الموصدة حتى فتحت ، وبالقلوب النافرة الجامحة حتى لانت وألفت وما زال يثابر ويصابر ويكافح وينافح حتى أمضى رسالته ، وأنفذها من ألفها إلى يائها ، على الرغم من جدتها وغرابتها وسموها ومثاليتها .. وحتى ربّى جيلا يحملها من بعده ، وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله ثم اسمه .

من سره أن ينظر إلى هذه الصورة العجيبة فلينظر إلى نبي الإسلام وهو يؤسس دعوة الإسلام ، دعوة ترد عليه أول الأمر من الأقربين إليه فيلتمس قبولها عند الأبعدين عنه من بين مواطنيه . ثم تلاقي من هؤلاء الصدود والسخرية ، فيخرج من بلده محاولا نشرها فيما حول مكة ، ثم يكون جوابها عند هؤلاء الازدراء والإيذاء ، فيعرضها على القبائل الوافدة

(١) سورة الأنعام : ١٩ . (٢) سورة المائدة : ٣ .
(٣) سورة الأعراف : ١٨٥ .

في المواسم . ثلاثة عشر عاماً وهو في هذا الشغل الشاغل والهم الناصب ولا يجد حوله بارقة أمل في انتشار دعوته واستقرارها . بل يجد من قومه في أثناء إقامته بينهم تألباً وتحزباً ومناصبة للعداوة السافرة ، حتى أنهم حاصروه هو وعشيرته بضع سنوات في شعب من شعاب مكة ، لا يعاملونهم ولا يكلمونهم . فلم يزده العناد منهم والمكابرة إلا مضياً في الإلحاح والمثابرة . ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالا للصعاب واستعذاباً للعذاب . ألم تستمع إليه حين رجع من الطائف وقد رده أهله أسوأ رد . وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة . فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته . فلم يكن في شكواه حرف واحد ينم على شيء من اليأس والوهن . بل إنه ختمها بأروع كلمة يعرفها أرباب المثل العليا إذ جعل يقول في مناجاته لربه : (إنْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطاً عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي)؟.

كل ما يعنيه إذن في جهاده هو إرضاء ربه وضميره . أما ما وراء ذلك . أما ما يصيبه في سبيل ذلك — فكله أمر يهون ويزدرى . أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء في العقيدة ؟!.

وأروع من ذلك كلمته الأخرى التي تناقلتها السير وسارت بها الأمثال في إجابته لعمه أبي طالب . حين رغب إليه أن يشفق على نفسه وأن يكف عن مواجهة قريش بهذه الصراحة المؤلمة . فما كان جوابه إلا أن قال : (وَاللهِ يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَنْزِلَ عَنْ هٰذَا الْأَمْرِ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ) .

فيالها من عزيمة مصممة لا تقبل مراءاة ولا مساومة !. ويالها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من تلك الدنيا وملك الشمس والقمر !.

وهل كانت الهجرة المحمدية إلى المدينة إلا حلقة جديدة من سلسلة هذا العزم المصمم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة . وعلى النجعة في طلب التربة الخصبة لها في أية بقعة يجدها من أرض الله الواسعة ؟.

هذا النبي المهاجر — صلوات الله عليه — لم يخرج إذن إلى المدينة لحماية شخصه . ولكن لحماية رسالته وإرساء دعوته . ولم يكن خروجه هرباً من الجهاد . ولكن استناداً إلى قلعة الجهاد . إنه جزءٌ من خطة ثنائية مرسومة في السماء فالجهاد كر وفر . وقد أحسن الفر ليحسن الكر . وكان هذا الفر هو فاتحة العهد الجديد . وأول النصر العزيز . ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الإسلام . فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام .

هكذا نرى العقيدة والمبدأ هما هدفا النشاط النبوي ومحوره في أول الأمر وآخره . بل هما كل شيء في حياة الرسول : لهما يتحرك ويسكن ومن أجلهما يرضى ويغضب . وفيهما يحب ويكره . بل فيهما يموت ويحيا : « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »[١] .

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ — ١٦٣ .

مكة وطن روحى لجميع المسلمين

الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأمناً ، والصلاة والسلام على الهادي البشير ، سيدنا محمد نبي الرحمة ، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ، وبعد :

أيها الحجاج الأبرار :

هذا حرم الله تفتح لكم سماوه تكريماً لوفودكم ، وتتطامن لكم أرضه ترحيباً بقدومكم ، وهذه ملائكة الرحمن تستقبلكم وتحييكم وتقود خطاكم وتهديكم .

أيها الضيف المكرمون : حنان ما أتى بكم اليوم ها هنا .

في هذا القيظ الملتهب هواؤه ، المحترقة رمضاؤه ، أعلن حين يتهيب الناس في بيوتهم أن يخرجوا من الكن إلى الضح ، وأن يتعرضوا للفح الريح ، في الوقت الذي يخرج فيه القادرون على السفر إلى مرابع الظل الظليل ، ومساقط النسيم العليل ، في مناطق الشمال ، وعلى شواطئ البحار تقبلون أنتم ضاحين في العراء ضاربين في أحشاء الصحراء ، تكابدون عناء الحل والترحال ، وتخوضون بحاراً من العرق والغبار ، في بلد غير ذي زرع ولا قطر . هلا أجلتم هذه الرحلة القاسية عدة أخرى من السنين حتى يدور الزمان دورته ، فيجيء موسم الحج في الشتاء أو في الربيع !.

هكذا يخوف الشيطان أولياءه ، ويخذل الضعفاء من أعدائه ، وهكذا يفكر أولو النعمة ، والمترفون في كل أمّة .

أما أنتم ، فقد سخرتم من كل هذه المعوقات والمثبطات ، إن حرارة الطبيعة قد انمحت وانهزمت أمام حرارة إيمانكم ، وإن وعورة السفر قد ذللتها صلابة عزائمكم . وهكذا برهنتم على أن الإنسان ليس هو هذا الهيكل الحسي الذي تدركه الأبصار ، وأن قيادته وتصريف زمامه ليسا كما يزعم الجاهلون بيد تلك القوى الطبيعية كلها بدنية كانت أو كونية برهنتم على أن في الإنسان جوهرة أخرى أعظم من أن ينالها الحس : السلطان في الحقيقة سلطانها ، والأمر النافذ على الجوارح هو أمرها . تلك هي المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب .

لقد شعرتم إذن بنداء الواجب ، يتردد صداه بين جوانحكم ، فلم يسعكم إلا أن أجبتموه سراعاً : لبيك لبيك ، لا نعرض محجمين ولا نقعد متثاقلين . وكذلك يفعل أولو الحزم والعزم ، هم أبداً سباقون إلى الخير ، مسارعون إلى البر ، لا يحتمل نداء الواجب عندهم تسويفاً ولا تأجيلا ، ولا يبالون في سبيله ما يبذلون من جهد وتضحية ، ذلك بأنهم لا يصيبهم فيه ظمأ ولا نصب ولا مخمصة ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ووفوا عليه جزاءهم . ألا فليكن في سبيل الله ما كابدتم وتكابدون ، وفي صحيفة الحسنات ما بذلتم

وتبذلون . وليكن جزاؤكم عند الله موفوراً . وسعيكم لديه مشكوراً .

أيها الضيف المكرمون :

لا تحسبوا حين أدعوكم باسم الضيف المكرمين . أني أعدكم ضيفاً ها هنا على أحد من البشر . فإنما أنتم وفد الله وضيف الرحمن . إنكم ها هنا لستم بدار غربة . ولكنكم في أرضكم ودياركم . لئن كنتم قد فارقتم أوطانكم الخاصة المتفرقة – لقد حللتم هنا في وطنكم المشترك الجامع . هذا هو البلد الحرام الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد . فالمسلمون فيه سواسية : المقيمون فيه . والقادمون إليه – لهم جميعاً حق مشاع في مناسكه ومشاعره . وآثاره ومعالمه . لا ينازع فيه أحد أو تستأثر به أمة دون أمة .

أيها الحجيج البررة :

كم تشاهدون ها هنا من آيات بينات ؟. وكم تستعيدون ها هنا من ذكريات محببات إلى القلوب ؟. ها هنا هبط الوحي من السماء . ها هنا استوطن الأنبياء . ها هنا بزغ نور الإسلام . ها هنا مشى محمد وصحبه ها هنا انتصر الحق وحزبه . ها هنا طاف الأنبياء والصالحون . ها هنا سعوا وهرولوا . ها هنا صعدوا وانحدروا . ها هنا ذبحوا ونحروا . ها هنا دعوا وابتهلوا . ها هنا تصدقوا وبذلوا . فإن كنتم تريدون أن تسجلوا أسماءكم في الكتاب الذهبي الذي أعده الله لهم فسيروا على مواضع

أقدامهم . واقتفوا سنتهم وآثارهم . في نصها وروحها ومظهرها ومخبرها .

ثم هذه الكعبة التي كنتم تحجون إليها بقلوبكم في الصلوات ، وترنون إليها بأبصاركم من وراء الآفاق . كل يوم عشرات المرات ها هي ذي منكم الآن رأي الأعين . فاغتنموا وتزودوا . إنها البقعة المطهرة المطهِّرَة : مطهرة ، أمر الله أن تنزه عن كل رجس . وعن كل إثم . وعن كل ظلم . حتى من الرفث والخصومة والجدال . الصغيرة فيها كبيرة والحيف اليسير فيها ظلم عظيم « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ومطهِّرة ، جعلها الله مغتسلا للذنوب التي ترتكب في كل مكان ، وفي كل شأن . إلا ظلم الإنسان للإنسان . فإنه لا تكفره صلاة . ولا صوم ولا حج . ولا قربان . وإنما تمحوه رد التبعات إلى أهلها أو استعفاؤهم منها .

أيها الحجاج المبرورون :

لقد حدثتكم الآن عن أهداف هذه الرحلة المقدسة . حديثاً يعرفه كل امرىء منكم في نفسه . وأود أن أحدثكم عنها حديثاً آخر ربما لا يعرفه منكم إلا القليل : فعامة المؤمنين يفهمون من شعائر الحج أنها مأدبة روحية أعدها الله لعباده عند أول بيت وضعه للناس . ليتزودوا فيها من أنواع القربات . ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات . فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها وشأن واجباته وتأديتها .

غير أن الإسلام أوسع أفقاً ، وأبعد نظراً من أن تحده هذه الأهداف الفردية الضيقة . وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة في أن نؤدي هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين ، في أي وقت من العام يشاؤه الواحد منا ؟. ولماذا أمرنا لزاماً أن نؤديها مجتمعين في صعيد واحد ، في وقت واحد ، وفي زي واحد ؟. لا بد أن هنالك سراً أو أسراراً يهدف إليها التشريع الإسلامي من وراء هذا التجمع والتكتل . ولست محدثكم عن هذه الأسرار جملة وتفصيلا ، ولكني أكتفي بواحد منها .

أتدرون ما الأواصر التي ربط الله بها هذه الأمّة الإسلامية ، لتكون كالجسد الواحد ؟. كلنا نعرف منها آصرتين اثنتين : وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ؛ إله واحد ، وكتاب واحد . آصرتان عقليتان معنويتان ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسيّة ملموسة ، فبعث منادية في الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ليعبدوا هذا الإله الواحد ، بتلك الشريعة الواحدة ، على أرض واحدة ، هي أرض الوطن الروحي . وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة في وحدة الوطن الأعلى . ذلك ليذكر المسلمون أنهم – وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألوانهم – تجمعهم جامعة الدين والله والوطن . وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا .

إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامي ترينا كيف أنه يمتد في قلب

العالم كتلة واحدة متصلة ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وأنه كله يدور على محور واحد ، هو مكة المكرمة التي هي قلب الوطن الإسلامي وقطب رحاه . إن هذا الوضع الجغرافي المتماسك القوي ، قد اختص به الإسلام بين سائر الأديان . ومع ذلك فمن أعجب العجب أن الذي ينظر إلى الماضي القريب للأمّة الإسلامية ، لا يجدها في المكانة التي يؤهلها لها هذا الموقع الفريد . ذلك أن تفتتها الإقليمي وانطواء كل شعب منها على نفسه أنساها هذه الرابطة العظمى . ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية ، فكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر إلى قطر وليس بيدهم جواز سفر إلا كلمة الإسلام .

فهل يعود الإخوة المؤمنون إلى هذا التقارب ، والترابط ، لتعود للوطن الإسلامي مناعته وحصانته ، فلا يبقى فيه بعدئذ عيش لتلك الطفيليات التي تمتص دماء أبنائه وتحني أعناقهم ؟. وهل يكون لنا من موسم الحج هذه العبرة ؟.

إنها ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

الحلقة المفقودة فى أنظمتنا الاجتماعية

الحمد لله الذي خصنا بكتابه . وشرفنا بخطابه . وصلاة الله وسلامه وتحياته وبركاته وإكرامه على من دلنا على الله . وبلغنا رسالة الله . فعلم ونصح . وبيّن وأوضح . سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي . القرشي الهاشمي . وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام . وبعد :

إلى المؤمنين برسالة الإصلاح . المتلهفين شوقاً إلى بناء مجتمع نقي قوي . المتلمسين أقرب الطرق وأسرعها توصيلا لهذه الغاية النبيلة . إلى قلوب هذه الفئة الغيور المؤمنة . أسوق كلمتي . وأوجه دعوتي :

إني لأسمعكم تشكون وتتبادلون الشكوى من كثرة عيوبنا ونقائصنا وإني لأراكم في كمد وأسى تتمنون أن يتبدل نقصنا كمالا . وانحرافنا استقامة . وفسادنا صلاحاً .. إن المريض أيها السادة لا تشفيه شكوى الأطباء ولا تشاكيهم . وإن الغريق لا ينقذه البكاء وبكاء المشفقين ولا تباكيهم .. ويا ليتنا حين نجأر بالشكوى نضعها في موضعها . فنصرخ بها في وجه العيب والنقص . حتى نزلزل بها أقدامهما . ولكننا نشكو الذنب في غيبته ومن وراء ظهره ولا نجرؤ على مواجهته ومكاشفته . ألسنا نجامل المذنبين من أهلنا وأصدقائنا . ونكتمهم نصحنا إسرافاً في مجاملتهم ؟!. ألسنا نمر في الطريق فنرى الحقوق مضيعة . والآداب منتهكة ثم نمضي في طريقنا . ونهز لها أعطافنا ما دامت لا تمس أشخاصنا ؟.

هل أدلكم على موطن العلة والداء ؟.

إن هذه الظواهر كلها ما هي إلا أعراض حادة أو مزمنة . لمرض جوهري رئيسي عميق بعيد العمق . خطير شديد الخطر . يهدد كياننا الاجتماعي :ذلك أننا نفهم الحرية الفردية فهماً سيئاً متطرفاً . ونفهم المسئولية الاجتماعية فهماً ناقصــاً محرّفاً . الدولة عندنا هي المسئولة عن كل شيء . هي التي يجب عليها أن تتعقب المذنبين وأن تتولى عقوبتهم فإذا لم يصل إليها نبأ الجريمة . أو لم تصل هي إلى كشف معالمها ، أو كانت مما لا يعاقب عليه القانون – تركنا نحن صاحبها آمناً مطمئناً يلاقي الترحيب والتكريم الذي كان يلاقيه من قبل . وتركنا كل فرد منا يسير سيرته الأولى غير شاعر بمسئوليته عن سلوك الآخرين . ولا حاسب حساباً لموقف الآخرين من سلوكه . عقد منفرط . لا ينظمه سلك واحد وجسم لا يهيمن عليه روح واحدة . أتدرون ما هذا الروح الواحد الذي يجب أن يسود ويهيمن على المجتمع ؟ إنه الوعي العام الغيور المتيقظ ، الحارس للقيمة المعنوية في الجماعة .

نعم . إن ها هنا سر الشقاء . وحقيقة الدواء . أما ما وراء ذلك من دعوة الداعين وإرشاد المرشدين فوق المنابر . أو على جناح الأثير أو على صفحات الكتب والجوائب . فليس في جملته إلا تلطيفاً وتسكيناً وقتياً لبعض جوانب المرض . ذلك أن الذين تتفتح أسماعهم وقلوبهم لهذا الإرشاد . إنما هم الصالحون الخيرون . وقليل ما هم ، وأن الذين تنطبع

به مشاعرهم ، وتتحرك به عزائمهم . من بين هؤلاء القليل ، هم أقل القليل . أما السواد الأعظم من المستمعين فإنهم متى انصرفوا إلى شئون الحياة في البيت أو في الطريق أو في المدرسة أو في الديوان أو في الأندية أو في الأسواق أو في المصانع أو في المزارع – فإنهم سرعان ما ينسون ، لأنهم لا يجدون في بيئة منها وازعاً ولا منازعاً . ولا مذكراً ولا محذراً ، بل يجدون فيها من ضروب الإهمال والتهاون الأدبي ما قد يغريهم بالعبث أو الإجرام .

هكذا تهدم الجماعة في ساعة واحدة ما تعبت في بنائه أيدي القادة والمصلحين .

وهكذا تكون الجماعة هي التي تمهد السبيل لأبنائها أن يقفوا مواقف الإثم والبغي ، وهي التي تقودهم في النهاية إلى أسوإ العواقب وأشد العقوبات .

نحن إذن في حاجة ملحة إلى إيقاظ هذا الضمير الاجتماعي في الأمّة لا عن طريق الدعوة والموعظة فحسب ، بل من طريق عملي جدي . نحن بحاجة إلى تكوين رأي عام أخلاقي ، له نفوذه واحترامه في نفوس كل الأفراد ، بحيث يشعر كل امرئ أن إساءته دقت أو جلت ستلاقي جواباً سريعاً علنياً في سلوك المجموع بإزائه .

نعم . إننا نريد أن يشعر كل باغ على حق غيره ، وكل خائن لأمانته وكل مضيع لواجبه وكل خارج على الآداب في صورة من الصور – نريد

أن يشعر بأنه قبل أن يؤاخذه القضاء ، وقبل أن يواجه التحقيق ، وقبل أن يقوده رجال الضبط والحفظ – ستصوب نحوه جهاراً ، سهام النقد والذم . وسيذوب وجهه خجلا ، تحت نظرات السخط والمقت ، وسيحرم عطف المجتمع ومعونته . وأنه لن يبسم في وجهه أحد ، ولن يبادله التحية أحد . وأنه سيعيش مهجوراً منبوذاً . حتى يراجع نفسه ويعدل من سيرته .

هل أتاكم نبأ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين خرج هو وأصحابه إلى الجهاد في سفر شاق طويل ، وفي إبان القيظ الشديد . فلما عاد من السفر . وسألهم عن سبب تخلفهم صدقوه الخبر ، واعترفوا له بأنهم لم يكن بهم مرض ولا عوز . وكان كل ذنبهم أنهم طال بهم التجهز للرحيل . حتى فاتتهم القافلة .. أتدرون ماذا فعل القائد الحكيم ؟. لقد نهى الناس عن كلامهم . حتى يقضي الله في شأنهم .

فاجتنبهم الناس اجتناباً ، حتى كان أحدهم يسلم على بعض أقاربه وأحب الناس إليه ، فلا يردون عليه التحية . بل اعتزلهم أهلهم ونساؤهم ولبثوا على ذلك خمسين يوماً وليلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم .. ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة التي كانت أنكى فيهم من حد السيف .

هذا هو طراز التربية الناجحة الذي نريد أن نقتفي منهاجه ، وتلك هي الحلقة المفقودة التي لو وضعناها في مكانها من جهاز حياتنا العاملة لاستراح الحاكم والمحكوم ، وما كاد يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم .

أما أننا كيف نخلق الرأي العام القوي الأبي . فإن مفتاح الحل في يدكم أيها الأحرار الغيورون . وما عليكم إلا أن تبدؤوا بغرس شجراته الأولى على بركة الله .

والآن فإني سأدعوكم إلى البدء في تجربة هذه الخطة العملية الإنسانية واعلموا أني لن أدعوكم إلى كبير ولا إلى عسير . ولا إلى شيء من العنف الذي يحظره الأدب أو القانون . ولكني سأدعوكم إلى تحقيق الحد الأدنى من درجات إيمانكم بالإصلاح .. سأدعوكم وأتحدى إيمانكم وعزيمتكم .. فاستمعوا لهذه الدعوة وأطيعوا . بارك الله فيكم .

هأنذا أدعوكم في هذه اللحظة أن يعاهد كل منكم ربه . وأن يبايع كل منكم أهله وعشيرته . وأصدقاءه وأصفياءه . أن تكونوا يداً واحدة في الصراحة والحق . تبدؤون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت قدمه . فتذكرونه كلما نسي . وتنبهونه كلما غفل .. حتى إذ عاود وعاند . وأصر وأبى ولج في الفساد . وجاهر بالإثم والعدوان – أشعرتموه إعراضكم . وحرمتموه بشاشة وجوهكم . ومنعتموه مظاهر ترحيبكم وتكريمكم . وأحطتموه بجو من العزلة والوحشة والهجران . حتى يفيء إلى أمر الله .

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية التي أدعوكم إليها . هي معنى تغيير المنكر بالقلب . لمن عجز عن تغييره باليد واللسان . وهي التي صدر فيها النطق النبوي الحكيم . بأنها هي أضعف الإيمان . فإن قمتم اليوم بوضع

حجرها الأساسي فتحتم فتحاً مبيناً في دعم نهضتها ، وبالتعجيل بإنضاج ثمراتها المباركة .

وهأنذا أبدأ بنفسي فأعاهد ربي وأبايع أهلي وعشيرتي وإخواني وخلطائي أن أحافظ على هذا الواجب ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

استقبال رمضان
« من وحي الهلال »

الحمد لله ذي الجلال والإكرام ، منزل الكتاب وما فيه من الأحكام جاعل الصوم من شعائر الإسلام . وأُصلي وأُسلم على رسوله محمد ، خير الأنام ، وعلى آله وأصحابه الكرام . وبعد :

أقبل . . أقبل . . أقبل هلال رمضان .

أقبل ، فإن عيوننا إلى الآفاق شاخصة تستشرف إلى رؤيتك ، وإن قلوبنا حولها حائمة هائمة ، تترقب اجتلاء طلعتك . . ويقول العاذلون : ما بال قلبك هائماً بهلال رمضان ؟. وهل هو إلا هلال من أهلة العام؟. وما دروا أنك إلى القلوب أعظم وحياً ، وأن القلوب إلى وحيك أيقظ وعياً ، وإن كانت آية الله في الأهلة تتكرر وتتجدد .

فلينظر الناظرون معي إلى هذه القوس النورانية في أول بزوغها ؛ ألا يرون طرفيها كل واحد منهما يستقبل الآخر ويتجه إليـــه ، ثم لينظروا إليها بعد ذلك ؛ ألا يرون كلا الطرفين يقترب من صاحبه اقتراباً ويسعى إليه سعياً وئيداً ، إلى أن يتعانقا ويلتحما . . أفلا يجدون في ذلك إيحاءً علوياً ؟. ألا يسمعون منه نداءً خفياً ؟ .

إن هذه الصورة لتمثل في أعيننا موقف المؤدب إذا أراد أن يصور

للناظرين حركة الإحاطة والضم ، أو حركة الانضمام والالتئام ، ألا تراه يبدأ يفتح سبابته وإبهامه فتحة منفرجة . ثم يأخذ في ضمها رويداً رويداً ليجعل منهما في النهاية حلقة مفرغة ؟. هكذا تتمثل لنا ظاهرة الهلال في نشأته ونموه : كأنها فتحة إصبعين ثم انطباقهما . . إصبعين رمزيتين شارة من شارات الرحمن ، يخاطب بها من أراد أن يتدبر ويتذكر ، يوحي بها إلى العالم كله إيحاءة واحدة ، ثم يوحي إلى المؤمنين خاصة إيحاءة أخرى .

يشير إلى الناس بها كافة أن الخلق والأمر كله بين هاتين الإصبعين فوجهوا وجوهكم جميعاً إلى من هذه الأرض في قبضته ، وهذه السموات مطوية في يمينه ، فلا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ثم يشير إلى المؤمنين خاصة ؛ أن ترسموا هذه الصورة في حياتكم : فما كنتم لربكم أمّة واحدة ، فكونوا فيما بينكم أمّة واحدة . . أرأيتم كيف يتدانى طرفا الهلال ويتكامل خلقه حتى يصير بدراً كاملا ؟. فكذلك فلتتواصل أطرافكم ولتتلاصق صفوفكم . ولتتجمع قلوبكم ، ثم لتتحول فيكم هذه الوحدة الجامعة وحدة مانعة ، تصبحون بها يداً على من سواكم ، سلماً لمن سالمكم ، وحرباً على من عاداكم .

تلك معان قد يستوحيها المستوحي من كل هلال ، ولكن ترجمة آياتها وتعبير دلالاتها اقترنت في تاريخنا بشهر رمضان ، الذي أُنزل فيه القرآن وفيه يوم بدر ، وفيه يوم الفتح ، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر .

أقبل إذن هلال رمضان !. وليكن مطلعك على الإسلام من أفق العزة والنصر . وعلى المسلمين من فلك السؤدد والمجد . وليكن مقدمك على البلاد أمناً ورخاءً ونعمة . وعلى العباد يمناً وإخاءً ورحمة .. أقبل وسارع واقترب . لتضع للناس ميزان الحق . مكان ميزان القوة . ولتقيم فيهم قانون اللين والرفق . بدل قانون البطش والقسوة . أقبل على الأرض فاملأها نوراً وسلاماً . بعد أن ملئت ظلماً وظلاماً .

أقبل هلال رمضان . فأشرق على ربوع الإسلام . وأنزل على أبنائها من إيحائك الرشيد أشعة قوية تقود خطواتهم . تلاحقهم في مساجدهم وأسواقهم . وتتابعهم في أنديتهم ومجامعهم . وتغشاهم في بيوتهم ومضاجعهم . تنفذ إلى قلوبهم في خلواتهم وجلواتهم .

أقبل على بيوت الله فاغمر ظاهرها وباطنها بنورك . خل منارانها تأخذ زينتها عقوداً وقلائد تباهي بها مصابيح السماء . ثم افتح أبوابها ليلا ونهاراً . بعد أن كانت لا تفتح إلا لماماً . ثم انفذ إلى باطنها فاملأه روحاً وحياة . لا تخلها ساعة واحدة من راكع أو ساجد . أو قارىء ، أو ذاكر . أو مرشد أو مسترشد .. وهكذا أعدها كما كانت أول يوم :

« فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ »[1] .

(١) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧ .

ثم أطل على أندية المسلمين ومجامعهم . وهي لاهية لاغية . لا خير في كثير من نجواها . ولا يطيب لهم إلا لحوم موتاها . فألزم سمارها الصوم عن اللغو والهجو . والرفث والفسوق ، وذكرهم بدستور المجالس في القرآن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ . وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى »[1] .

ثم عرج على أسواق المسلمين وهي في لجب وصخب . يسودها الجدل والمراء . والخصومة والشحناء . ويفشو فيها الشح والحرص والغش والمكر والخديعة والغبن . وتروج فيها المهاترة والأيمان الفاجرة !. عرج فأشرق عليها بوجهك الصبوح السموح . وألق عليها مسحة من صباحتك وسماحتك جدد لمن فيها عقد إيمانهم . حتى يخففوا من غلوائهم وجشعهم . قل لهم : أيها الناس . لقد علمتم أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها . فاتقوا الله إذن وأجملوا في الطلب . ثم ذكرهم بوصية نبيهم : (رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ . سَمْحاً إِذَا اشْتَرَى . سَمْحاً إِذَا قَضَى . سَمْحاً إِذَا اقْتَضَى) .

أقبل هلال رمضان ، واغش كل عامل في عمله ، وكل صانع في صنعته ، وكل حاكم في حكمه . وكل ذي مهنة في مهنته ، فأشعرهم

(١) سورة المجادلة : ٩ .

بتقوى الله في أعمالهم . ومراقبته في سرهم وعلانيتهم . وناشدهم رعاية الحقوق والمصالح الموكولة لأمانتهم . وقل لهم مقالة القائد الأعظم : (إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ) .

ثم لج البيوت والدور . والأكواخ والقصور . فاطبعها كلها بطابع الإسلام . وأدبها بأدب القرآن . سوِّ بينها في الجوع والظمإ نهارها ، وفي الريّ والشبع ليلها . لا تدع فيها أحداً يبيت شبعان وجاره طاو إلى جنبه ولا أحداً يظل نهاره طاعماً راوياً . وهو قادر أن يؤدي حق ربه .

فأقبل علينا أفراداً وجماعات . فأيقظ قلوبنا الغافلة من سباتها وأطلق أرواحنا المكبوتة من عقالها .

أقبل شهر رمضان ! أقبل شهر رمضان ! أقبل شهر القرآن ! أقبل فجدد عهدنا بكتاب ربنا . عهداً شاملا كاملا . حتى نكون من أهله حقاً وصدقاً : درساً وفهماً . وعملا وحكماً .

أقبل علينا قادماً كريماً . واحلل بيننا ضيفاً عظيماً . وإن يشأ الله يجعلنا أهلا للوفاء بحقك . وكفؤاً لإكرام ضيافتك ... اللهم فاسمع واستجب .

رمضـــان
شهر الهدى والرحمة

الحمد لله العزيز الوهاب ، الذي جعل القرآن هدى ورحمة لأولي الألباب . وشهر رمضان مغفرة لمن تاب وأناب .. وصلى الله على المصطفى من أطهر الأنساب وأشرف الأحساب .. وعلى آله وأصحابه . خير أهل وأصحاب . وسلم تسليماً كثيراً . وبعد :

.. واستدار الزمان ، وعاد شهر رمضان ..

عاد إلينا بعد أن نسينا كثيراً . وبعد أن سبحنا في شئون دنيانا سبحاً طويلا .

عاد رمضان . وقدر لنا أن نعود معه لنشهد أيامه الغرّاء . ونحيي لياليه الزهراء .

ترى هل يمتد بنا العمر . فنعود إليه كرة أخرى ؟. أم هل يسبق الأجل . فلا نلقاه بعد عامنا هذا ، إلا من اتخذ عند الله عهداً أنه سينسأ له في أجله ، حتى يلقى رمضان في عام قابل ، معافى في بدنه ، موفوراً في رزقه ، ممكناً من تدارك أمره ، صادقاً في نيته ، راشداً في عزيمته ؟.

من اتخذ عند الله عهداً بذلك . فليبطئ ما شاء أن يبطئ في عمله وليسترسل ما شاء أن يسترسل في أمله . وليسوف وليؤجل ما بدا له أن

يسوف ويؤجل .. أما والقدر مستور محجب ، والأجل قد ينتهي في لمحة والساعة لا تأتي إلا بغتة – فمن الحمق والله أن نبيع حاضراً بغائب ، وأن نستبدل شكاً بيقين ! :

« أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ »[١] . «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »[٢] . وفي أي فرصة بعدها يتداركون ؟. أفينتظر كل امرىء منا حتى يجيئه اليوم الذي يقول فيه : « رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ »[٣] . أو يقول : « رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ »[٤] .

كلا . بل الحزم كل الحزم . والكيْس كل الكيس – أن نغتنم هذه الفرصة السانحة وألا نضيع هذه الصفقة الرابحة .

نعم . إنها لفرصة سانحة . ألا تعرف من فصول الزمان فصلا خصيباً يورق فيه الشجر . ويتفتح فيه الزهر . وتطيب فيه التربة . وتبارك فيه الحبة . فتؤتي أكلها ضعفين أو أضعافاً كثيرة ؟ .

إنه الربيع . يتحينه الزرّاع ويترصدونه ليلقوا فيه بذورهم وليغرسوا فيه غراسهم .

(١) سورة الشعراء : ٢٠٥ – ٢٠٧ .
(٢) سورة الأعراف : ١٨٥ .
(٣) سورة المؤمنون : ٩٩ – ١٠٠ .
(٤) سورة المنافقون : ١٠ .

هكذا رمضان . هو ربيع الأرواح . كل ما أزلفت فيه النفس من خير وبر يزكو وينمو ويربو ؛ صيامه وقيامه وصدقاته وغدواته وروحاته كلها مباركة مضاعفة الأجر . وحسبه أن فيه ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ؟. ليلة القدر خير من ألف شهر .

فما أجدر المتخلفين منا عن الركب أن يتداركوا في هذا الربيع ما فاتهم . وأن يحاولوا اللحاق بالقافلة . قبل أن ينقطع الطريق بهم !..

وما أجدر السائرين منا في هذه القافلة السماوية أن يضاعفوا اليوم جهودهم . وأن يستحثوا مطاياهم وركائبهم . ليزدادوا اقتراباً من مثلهم العليا .

ألا وليكن أول ما نبدأ به . حين نستمع إلى هذا النداء . أن نلتفت التفاتة يسيرة إلى الوراء . لنحصي على أنفسنا سقطاتنا وزلاتنا . ولنمحو بماء الندم ما مضى من تفريطنا في حق ربنا . ولنوطن العزم على الجد والاستقامة في مستقبل أمرنا . تلك هي الخطوة الأولى في الاستجابة لداعي الله . وتلك هي حقيقة الاستغفار الذي جعله الله ضماناً للأمن والأمان ، في هذه الحياة . وفيما بعد هذه الحياة . وذلك حيث يقول – عز شأنه – مخاطباً رسوله الرءوف الرحيم : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[١] . فكان للأمة إذ ذاك حصانتان من البلاء : حصانة بوجود الرسول بين ظهرانيهم . وحصانة باستغفارهم

(١) سورة الأنفال : ٣٣ .

لذنوبهم . واليوم وقد ذهبت الحصانة الأولى لم يبق لنا إلا الحصانة الأخرى .

فإن ضيعناها هي الأخرى ، بإصرارنا على إقرار الكفر والإلحاد وإهمالنا لقمع الفجور والفساد – فسوف يسلط الله علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، وسوف يهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ولن يكون لنا منه يومئذ ضمان ولا أمان ، فإن من لا إيمان له لا أمان له :

« فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » [1] .

فلنبدأ اليوم عملنا بالإقلاع عن كل ظلم ، والتوبة والأنانية من كل إثم : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا » [2] . « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [3] .

فإذا أتممنا هذه الخطوة السلبية بالتنزه والتطهر ، بقي علينا أن نتبعها خطوة إيجابية بالتجمل والتكمل والبناء والإنشاء . نعم . بعد أن نفرغ قلوبنا من ظلمات الميول الضارة يجب أن نملأها بنور الحكمة فليس الشأن كل الشأن في رمضان أنه شهر الجلد والمقاومة ، ولكنه فوق ذلك هو شهر الهدى والرحمة : هدى ورحمة منشوران على الأرض ، وهدى ورحمة مرسلان من السماء .

(١) سورة الأنعام : ٨١ ، ٨٢ . (٢) سورة آل عمران : ١٤٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٢٣ .

فيه تزدحم بيوت الله ليلا ونهاراً بالراكعين والساجدين ، والقارئين والذاكرين ، والمرشدين والمسترشدين ، وفيه تفيض القلوب المؤمنة وقلوب المؤمنين رحمة وحناناً ، وبراً وإحساناً ، بالفقير والمسكين ، واليتيم وابن السبيل ، فذلك هو الهدى وتلك هي الرحمة المنشوران على الأرض .

وفيه أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وفيه تنزل الرحمات ، وتستجاب الدعوات : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » [1]. فذلك هو الهدى وتلك هي الرحمة من السماء .

ربنا فاجعلنا أهلا لرحمتك ، وأوزعنا أن نهتدي بهدايتك ، ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشداً .

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .

مغـزى شريعـة الصـيام

الحمد لله الذي جعل أهل القرآن أهل الله وخاصته . واصطفاهم من عباده . وأورثهم الجنة وحسن مآب . والصلاة والسلام على من أظهر طريق الحق والصواب . وانقشعت به ظلمات الشك والارتياب . سيدنا ونبينا محمد . وعلى الآل والأصحاب . أكمل صلاة وتسليم . وبعد :

ما في الصوم من كبت وحرمان .. ليس هدفه هذا الكبت والحرمان وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة . إنه التدريب على السيادة والقيادة قيادة النفس وضبط زمامها . وكفها عن أهوائها ونزواتها . بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها . فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمي جوفك عن تناول السحت والخبيث . فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب . ولقد كنت بالأمس تكف لسانك عن الشتم والإيذاء . فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة ، وعن إجابة التحرش والاستفزاز . فإن خاصمك أحد أو شاتمك لم تزد على أن تقول : إني صائم . إني صائم .

هكذا ملكت بالصوم زمامي شهوتك وغضبك . وأنه لصبر يجر إلى صبر . ونصر يقود إلى نصر . فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعاً مختاراً . في وقت الأمن والرخاء – لأنت غداً أقدر على الصبر

والمثابرة . في البأساء والضراء وحين البأس. ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك – لقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غداً على عدوك . وتلك عاقبة التقوى ، التي أراد الله أن يرشحك لها بالصيام .

هذا الهدف الذي صورناه وحددناه – إنما يقوم في منتصف الطريق الذي رسمه الله للصائمين ، وأن في نهاية هذا الطريق هدفاً آخر ، بل أهدافاً أخر أهم وأعظم .

وفي الحق أنه لو كان كل ما يطلب من الصائم هو أن يكف نفسه عن شهواتها وانفعالاتها ، ولم يكن أمامه عمل إيجابي جديد يسد به هذا الفراغ . لكانت إذن تجربة الصوم انتقاصاً للطـاقة العاملة من ناحية دون إمداد لها من ناحية أخرى . ولكانت إذن على حد تعبير العلماء : « تخلية بلا تحلية » أو تجارة مأمونة الخسارة ، ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة .

فهل شريعة الصوم في الإسلام هي تلك الصورة العارية الجرداء ؟ كلا . إنها عبادة ذات شطرين ، وليس شطرها الأول إلا تمهيداً وإعداداً لشطرها الآخر . إنها شجرة جذعها الصبر ، ولكن الله لا يريد للصائم أن يترك هذا الجذع قاحلا ماحلا ، بل يريد أن ينبت على جوانبه أغصاناً من الشكر ، وأن يتوج هامته بأوراق وثمار من الذكر والفكر . وأن من تأمل كلمة التقوى التي عبر بها القرآن الكريم في حكمة الصيام ، يجدها منطوية على هذين الشطرين :

فهي في شطرها الأول كف وانتهاء ، وابتعاد واجتناب ، لكنها في شطرها الآخر إقبال واقتراب ، وإنشاء وبناء .

وإذن فليس الشأن كل الشأن في أن يغلق الصائم منافذ حسه ، ويسكت صوت الهوى في نفسه . فذلك إنما يمثل إغلاق أبواب النيران ، ولكن الشأن الأعظم في أن يكون إغلاق منافذ الحس ، فتحاً لمسالك الروح . وأن يكون إسكات صوت الهوى تمكيناً لكلمة الحق والهدى ، فتلك هي مفاتيح أبواب الجنان ، ومن كان في شك من أن هذا الجانب الإيجابي هو الهدف الأخير لشريعة الصوم فليقرأ كتاب الله ، يجد دلائله مثبوتة في تضاعيف آيات الصوم ، وليطالع سنة رسول الله ، يجد معالمه مبسوطة في هديه النبوي قولا وفعلا .

والعجيب في هذا التوجيه أن الإسلام لم يتركه دعوة مرسلة ، بل وضع له مناهج معينة ، ورسم له خططاً مفصلة . ذلك أنه لما جعل شهر الصوم موسماً لانطلاق الروح من عقالها ، فتح فيه للأرواح بابين تتدفق باباً إنسانياً ، وباباً ربانياً :

فأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الإنساني ، فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضاً وإمساكاً بالحفظ والادخار ، وإنما يكون بسطاً وسخاءً بالبذل والإيثار ، لا تشبع أيها الصائم جوعتك ، ولا تنقع غلتك ، ولكن أطعم الجائع واسق الظمآن . هذا هو الصوم كما فهمه رسولنا الأعظم – صلوات الله عليه – فقد كان أجود

ما يكون في رمضان ، حتى أنه كان فيه أجود من الريح المرسلة . وما زكاة الفطر في آخر رمضان إلا الحلقة الختامية ، والمظهر العلني الجماعي لهذه الحركات النفسية الفردية التي تحولت فيها فضيلة الصبر إلى فضيلة الشكر ، اتباعاً لإرشاد القرآن الكريم حين يقول :

« وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

وأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الرباني ، فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة ، ورسم لها سبلا ، ذلك : تسبيح وتحميد تكبير وتمجيد : « وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ »[1] ، تضرع وابتهال ودعاء وسؤال : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »[2] . ركوع وسجود ، وقيام وتشمير ونهوض : قال – عليه الصلاة والسلام – : (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) . وما الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان إلا نهاية الشوط في هذا السير إقبالا على الله ، وانقطاعاً بالكلية إليه : « وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ »[3] .

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه في هذا الجانب الرباني إنما هو في مناجاة الله بكلامه ، وفي مدارسة كتابه ، كما كان يفعل الرسول المصطفى من البشر ، والرسول المختار من الملائكة ، إذ كانا يتدارسان القرآن في كل عام . ولأمر

(١ و ٢) سورة البقرة : ١٨٥ ، ١٨٦ . (٣) سورة البقرة : ١٨٦ .

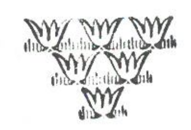
ما نوّه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن . وجعلها أولى المناقب والمزايا التي اختص بها هذا الشهر المعظم . فقال ـ جلت حكمته ـ : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ . هُدًى لِلنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ » فكان ذلك إيماءً لنا بأن نجعل حظ رمضان من القرآن أوفر الحظوظ .

(وبعد) : فإنه إذا كان من شأن الأمم الحية التي تعنى بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها . لم يكن بدعاً من الأمر أن يجعل الإسلام شهر رمضان هو الاحتفال بمولد دستوره السماوي الذي ختم الله به الشرائع . وأتم به مكارم الأخلاق .

ألا وإن أفضل أسلوب عرفه الناس في الاحتفال بعيد الدستور ، هو أن يجعل يوم ذكراه يوم تجديد لعهد الولاء له ، وتأكيد للحرص عليه والاستمساك به .. فكذلك فليكن احتفالنا بشهر رمضان ، احتفالاً بالقرآن الذي أنزل فيه : تعبداً بتلاوته وسماعه ، واستظهاراً لآياته وتفقها في معانيه ، وتأدباً واتباعاً لأحكامه . ألا ولتكن نصب أعيننا هذه الحقائق الأليمة : وهي أن قرّاء القرآن وحفاظه أصبحوا يقل عددهم عاماً بعد عام ، وأن القائمين بأحكامه الواقفين عند حدوده ، قد أصبحوا أقل القليل ، فإلى القرآن يا أمة القرآن أيها الصائمون ، ثم القرآن أيها المسلمون . إيّاكم أن يتفلت هذا الكنز من بين أيديكم . واعلموا أن الله

ما كان ليعذبكم والقرآن فيكم . « وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(١) .

فإلى القرآن يا أمة القرآن ..



(١) سورة الأنعام : ١٥٥ .

الجانب الاجتماعي في فريضة الصيام

الحمد لله البر الجواد ، الذي جلت نعمه عن الإحصاء بالأعداد . وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بالحق والإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : الصوم في الإسلام على ضروب شتى : فمنه نافلة ، يتطوع المرءُ بها من تلقاء نفسه متى شاء ، ويذر ما شاء ، ومنه فريضة خاصة يفرضها المرءُ على نفسه بالنذر ، أو تفرض عليه كفّارة لشيء من المخالفة أو الذنب .

كل هذه الضروب من الصوم يمكن أن يقال فيها أنها محض عبادة روحية فردية . روحية : تخص علاقة المرء بربه . فردية : غايتها إصلاح الفرد تسامياً بإرادته عن الخضوع لسلطان الهوى ، وتدريباً لنفسه على اكتساب فضيلة الصبر وملكة التقوى .

ولكن هناك ضرباً من الصوم ، يمتاز عن هذه الضروب كلها بأنه لا يخص فرداً دون فرد ، ولا فئة دون فئة ، ولكنه ضريبة الوفاء على الأمة جمعاء . ثم يمتاز بأنه لم يترك لأحد الخيرة في تحديد ميقاته ومقداره . ولم يوسع للناس أن يختلفوا في بدئه وختامه ، ولا في صفته ونظامه ، بل فرض على الجميع أداؤه في موسم معيّن من العام ، وفي مقدار

معيّن من الأيام . ذلك هو صوم رمضان الذي كتب على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوه معاً في وقت واحد وفي نسق واحد .

هذا الطابع الاقتراني الجماعي الشامل يكفي وحده للدلالة على أن هذه الفريضة السامية لا يراد منها أن تكون مجرد رياضة نفسية تصل بين العبد وربه فحسب ، ولكنه يراد أن تكون إلى ذلك حلقة الاتصال بين الأمّة ، ورباطاً بين الرحم وبين المؤمنين عامة ، وأن تؤدي بهذا وذاك ، رسالة مزدوجة روحية اجتماعية معاً .

وفي الحق أننا إذا نظرنا إلى موقع هذه الفريضة بين فرائض الإسلام وجدناها رابعة أربع هن شعائره العامة العظمى ، وقواعده العملية الكبرى : الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة .

وإذا نظرنا من جهة أُخرى في وجوه الشبه بين هذه الدعائم الأربع وجدناها كلها تتمثل فيها هذه الطبيعة الثنائية : الروحية الاجتماعية . ولئن بدا لنا أحد هذين الطابعين أبرز في بعضهما منه في الآخر – لنجدن الطابع الذي يقابله – يراجحه ويوازنه ويعادله .

هكذا قد نرى الطابع الإنساني يكاد يستأثر بفريضة الزكاة ، حتى يظن في بادئ الرأي أنها من معدن اجتماعي محض ، ولكن العنصر الأساسي الذي لا تقبل الزكاة إلا به عنصر روحي رباني ألا وهو إخلاص النية في أدائها امتثالا لأمر الله وابتغاءً لوجهه وحده .

وكذلك قد نرى الطابع الروحي يكاد في ظاهر الأمر يستأثر بفرائض الصلاة والصيام والحج . ولكن الشريعة قد أمدتها بعناصر . وأحاطتها بمظاهر . وقيدتها بشرائط . تجعل جانبها الاجتماعي لا يقل شرفاً وخطراً عن جانبها الروحي .

انظر إلى الصلاة القائمة وقد نهض القائمون لها كبيراً وصغيراً ، غنياً وفقيراً . وأميراً ومأموراً . ثم انظر إليهم وقد تخلل بعضهم بعضاً ، وامتزج بعضهم ببعض . ثم استقبلوا كلهم قبلة واحدة . واتبعوا كلهم قيادة واحدة . وانتظموا صفوفاً كأنها البنيان المرصوص . ثم تطابقت حركاتهم وسكناتهم . وأقوالهم وإشاراتهم . كأن أجسامهم قد تحولت جسماً واحداً . وكأن أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم صارت سمعاً وبصراً ولساناً واحداً .

ثم انظر إلى مناسك الحج وقد اجتمع الناس إليها من أقطار الأرض في صعيد واحد . حفاة أو شبه حفاة . عراة أو شبه عراة ، متجردين من كل زينة الحياة . إلا ثياباً كأنها ثياب ما بعد الحياة ، وقد محيت من بينهم هكذا فوارق الأحساب والأنساب ، والمناصب والألقاب . ثم استمع إليهم وقد أخذوا يرددون شعاراً واحداً . هو شعار الإقبال على الله ، والإعراض عما سوى الله .

من هذه الزاوية عينها ننظر إلى فريضة الصيام في بلد تعظم فيه

شعائر الإسلام . فنرى فيها مظهراً ثالثاً . من مظاهر هذا التماسك وهذه الأخوة والمساواة الإسلامية .

ألا ترى الناس – إذا رفعت راية الهلال في سماء رمضان – وقف كل مكانه على قدم الاستعداد كأنهم جند يتدربون على الطاعة والنظام ؟. فأخذوا كلهم يرهفون أسماعهم . ويفتحون عيونهم ترقباً لإشارة القائد الأعلى إليهم بالإقدام أو بالإحجام . وما هو إلا أن تمضي الليلة الأولى من الشهر . حتى يتلقوا طوال الشهر كل يوم عن هذه القيادة العليا أمرين متعاقبين : أمراً كلما طلع الفجر بالإحجام عن كل مشتهياتهم ، وأمراً كلما غربت الشمس بالإقبال على الحلال من تلك المشتهيات . فتراهم في لحظة واحدة . قد تحركوا طوع الأمر حركة واحدة . إيجابية أو سلبية وتراهم قد ارتسمت عليهم من هذه الحركة صورة لازمة لا تفارقهم نهارهم أو ليلهم . فلا ترى منهم في النهار طاعماً ولا راوياً . ولا ترى منهم في الليل ممسكاً ولا طاوياً . بل تراهم وقد انطبعت على نظام حياتهم مسحة جديدة من هذا النظام ؛ في عملهم وراحتهم . ونومهم ويقظتهم ، وسائر شئونهم وتصرفاتهم . حتى إذا رفعت راية الهلال في السماء لشوال كان ذلك أمراً بتسريح هذه المعسكرات المنشورة في كل مكان ، فعاد كل جندي إلى سيرته الأولى مدرّباً مجرباً .

هذه كما ترى قواعد الإسلام ودعائمه الكبرى . قد جعل الله كل واحدة منها قطباً ذا طرفين : طرف يربط المؤمن بربه ، وطرف يربطه

بإخوانه المؤمنين . أو نقول : إنه جعل كل واحدة منها ينبوعاً لمحبتين لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتين : الأولى المحبة لله . والأخرى المحبة في الله .

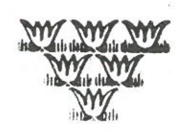
هكذا يريد الله أن يجعل من عبادتنا شعاراً لوحدتنا . بل يريد أن يتحول هذا الشعار شعوراً . وأن يصير هذا الشعار ناراً ونوراً . ناراً تفري قلوب الأعداء ، ونوراً يسري إلى قلوب الأولياء ، تواصلا وتراحماً وتساندا وتعاوناً .. معان تتفتح أبوابها في كل عبادة جماعية . ولكنها في عبادة الصوم أجلى وأظهر . أجل . إن تجربة الصوم المشترك لتذكي قلوب الصائمين لهذه العاطفة أشد مما يذكيها الاشتراك في عبادة أخرى . إنها زمالة في الجهاد . فلن يسع الزميل ذا الفضل والسعة أن يمسك فضله عن زميله المتخلف عنه في الزاد والعتاد .

هكذا كان صوم رمضان من جانبه النفسي : عفّة ، وزهداً ، وصبراً فأصبح من جانبه الاجتماعي رحمة ، وجوداً ، وشكراً .. هو من الناحية الأولى تجلد على الشدائد والآلام ، ومن الناحية الأخرى رفق وإرفاق بذوي الشدائد والآلام .

(وبعد) فإن في صوم رمضان معنى اجتماعياً آخر . وأعظم وأسمى لا نظير له في سائر العبادات . ذلك أنه احتفال بأكرم حادث وأيمن ذكرى في تاريخ الأمّة الإسلامية ، بل في حياة الإنسانية جمعاء ، إنه

احتفال بعيد الدستور السماوي الخالد . الذي تتبدل الدساتير ولا يتبدل وتعدل التشريعات والقوانين وليس فيه عوج : ذلك هو دستور القرآن الذي أُنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

ألا فلنجدد ذكره وذكراه بقلوبنا وألسنتنا ، ولنردد عهده ووصاياه على أهلنا وقومنا ، إلى أن يجيءْ اليوم الذي نجد حكمه قائماً بيننا : « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[1] .



(١) سورة المائدة : ٥٠ .

ليلة القدر

الحمد لله على نعمه السابغة . وأفضاله البالغة . وأزكى الصلاة وأتم التسليم على من أيده الله بالمعجزات الظاهرة . وجمع له شرفي الدنيا والآخرة سيدنا محمد النبي الأمين . وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد : قال التلميذ لأستاذه : نبئني أيها المربي الفاضل . ما سر هذا التكريم البليغ . وهذه الحفاوة العظمى التي يختص بها شهر رمضان من بين شهور العام ؟ .

قال المربي : لأنه كما قال الله : « أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ »[1] .

قال الطالب : ألم ينزل شيء من القرآن قط في غير رمضان ؟ .

قال المربي : بلى . في كل الشهور قد نزل قرآن . ولكن أول شذرة قرآنية هبط بها جبريل على قلب محمد – صلى الله عليه وسلم – كانت في شهر رمضان . حينما كان محمد يعبد ربه في غار حراء . فكانت هذه نقطة تحول بين عهدين . كانت أول قطرة من غيث الرحمة الإلهية التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . من الضلالة إلى الهدى . من الشقوة إلى السعادة . ثم تتابع الغيث في مدى ثلاث وعشرين سنة حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته بإتمام هذا الذكر الحكيم .

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

كانت الإيحاءة القرآنية الأولى إذن هي باكورة هذه النعمة العظمى وارتبطت ذكراها بتاريخ نزولها . فكلما جاء رمضان ذكرنا هذه الهدية وذكرنا من أهداها . وكان حقاً علينا شكره عليها . وتجديد ولائنا له ولها .

قال الطالب : وهل استغرقت هذه النزلة الأُولى من الوحي القرآني طوال شهر رمضان الأول ؟ .

قال المربي : كلا . بل كانت في لمحة خاطفة انبثق عنها فجر ليلة من لياليه .

قال الطالب : ما بالنا إذن نحتفل بالشهر كله ؟ . ألم يكن بحسبنا أن نحتفل بهذه الليلة الفذة وحدها ؟ .

قال المربي : أتحسب أن النور الذي انبثق في تلك الليلة . كان هكذا شعاعاً ضئيلا لا يضيء إلا قدر موضعه ؟ لقد كان له إشعاع غامر لا يسعه الشهر . بل يفيض على الدهر . لقد كانت ساعة سعيدة سعد بجوارها ألف ساعة . وكان أقل ما يضيء به ويجب الوفاء به لرب هذه النعمة أن نشتغل بشكره في مدى ذلك الشهر .

قال الطالب : هذا حسن . ولكننا سمعنا الله ينوه في كتابه بذكر شهر رمضان . فإذا كانت سائر ليالي رمضان إنما نالت هذا الشرف لجوارها لتلك الليلة التي نزل فيها القرآن . أفلم تكن هذه الليلة نفسها أحق أن ينوه القرآن بها . مثل ما نوه بالشهر كله أو أعظم ؟ .

قال المربي : زادك الله يا بني فقهاً وفهماً . لقد كان الأمر كما قدرت لقد نوه الله في كتابه بشهر رمضان مرة واحدة . ونوه بالليلة نفسها مرتين . وسماها باسمين كريمين : سماها الليلة المباركة فقال : « حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ »(١) . وسماها ليلة القدر ذات القدر والشأن العظيم .

فقال : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »(٢) . وأنزل في شأنها هذه السورة الكاملة المسماة باسمها .

قال الطالب : لقد كنت تحدثنا أن رمضان كله ذو شأن وقدر ، وأن العمل فيه عظيم الأثر ، مضاعف الأجر . فإذا كانت كل ليالي رمضان ذات قدر ، فما نرى إذن لليلة التي نزل فيها القرآن مزيد فضل بهذه التسمية على سائر الليالي .

قال المربي : ما أراك يا بني إلا قد خذلتك الآن ذاكرتك اللغوية ، أنسيت الفرق بين أن يكون الشيءُ ذا قدر ما ، وبين أن يكون هو صاحب القدر ، كأن ما عداه بالقياس إليه ليس شيئاً مذكوراً ؟ .

قال الطالب : لا تؤاخذني بما نسيت . ولكن هل تأذن لي أن أسأل : إلى أي مدى تصل نسبة هذا الفرق بين قيمة الأعمال في ليلة القدر ، وبين قيمتها في سائر ليالي رمضان ؟ .

(١) سورة الدخان : ١ ـ ٣ . (٢) سورة القدر : ١ .

قال المربي : سأمثل لك ذلك : ألا تعرف أن مضاعفة قيم الأعمال تكون في العادة بالآحاد أو بالعشرات أو بالمئات ؟. فهل تقر عيناً إذا قلت لك أن العمل في ليلة القدر يربو على العمل في ثلاثين ألف ليلة غيرها ؟.

قال الطالب : ما عهدناك تغلو وتسرف في تقدير الأمور . ثلاثون ألف ليلة ؟!. من أين لك هذا ؟.

قال المربي : من كتاب الله تعالى . اقرأ إن شئت : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ » لم يقل من ألف ليلة ، ولكن قال : « مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » .

قال الطالب : تبارك الذي لا تنفد خزائن نعمته .. نبئني إذن : هل هذا الفضل العظيم لا يزال في متناول العاملين المخلصين منا في كل رمضان ؟. أليس ذلك كان خصوصية لليلة المعينة التي نزل فيها القرآن أول مرة ؟.

قال المربي : يا بني . إنه لو كان الأمر كما زعمت في شأن هذه الليلة ، أقول : لو كانت فضيلتها إنما هي لليلة التي نزل فيها القرآن أول مرة ، لتحدث إذن القرآن عنها كما يتحدث عن حادث تاريخي مضى وانقضى ، ولقال إذن أنها كانت خيراً ، وكانت سلاماً ، وأنها تنزلت فيها الملائكة ، ولكنه يتحدث عنها حديثه عن شيء متكرر مستمر ، فيقول : أنها «خَيْرٌ» وأنها «سَلَامٌ» وأنها «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا» فهي إذن باقية ما بقيت على الأرض طائفة من الأمة مستمسكة بالحق عاملة على ظهور كلمته ، ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على

قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. ولقد علمنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضوان الله عليهم - كانوا يلتمسونها في رمضان كل عام .

قال الطالب : يلتمسونها ؟. أليست هي ليلة معينة معروفة في رمضان الأول . تتكرر في مثل يومها من كل عام ؟. ألسنا متى عرفنا تاريخ النجم الأول من القرآن اتخذناه رقماً ثابتاً في كل رمضان ؟.

قال المربي : إنها ليست دورة فلكية آلية . إنها منحة ربانية يبارك الله بها الليلة التي يشاء إنزال الملائكة والروح فيها . وقد كانت ليلة القدر الأولى وهي باكورة الوحي في اليوم السابع عشر من رمضان . فيما رواه المحققون من المؤرخين واعتمده المحققون من المفسرين استنباطاً من الآية الكريمة التي في سورة الأنفال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ »[1] . فإن يوم التقاء الجمعين وهو يوم بدر كان في السابع عشر . ولكنها تنقلت بعد ذلك في زمن النبي وأصحابه أنفسهم . فكانت في الحادي والعشرين . وفي الثالث والعشرين . وفي الخامس والعشرين . وفي السابع والعشرين . وقد أقسم أُبيُّ بن كعب - رضي الله عنه - فيما رواه مسلم أنها في السابع والعشرين يريد والله أعلم في عامه ذاك ، ولكن جمهور العلماء أخذوا به على عمومه .

(١) سورة الأنفال : ٤١ .

وأنت أرأيتك لو كنت في يوم معين ثابت في كل عام ، أفكنت تقبل على الله يومها وتعرض عنه في سائر الأيام ؟. فما يضيرك يا بني أن تتعرض لنفحاتها بإحياء بضع ليال من أواخر هذا الشهر تكثر فيها ذكرك لله ، وبرك بخلق الله ؟. إنها يا بني فرصة ثمينة بالحرص عليها والسعي إليها ، وما أحسن قول القائل فيها : إنها ليلة ذات قدر ، أنزل فيها كتاب ذو قدر ، على نبي ذي قدر ، في أمة ذات قدر : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ »[1] .

كتب الله فيها لنا ولك العافية والأمن والسلام ..

(١) سورة القدر : ٤ - ٥ .

للصائم فرحتان

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، هدى وذكرى لأُولي الألباب. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بجوامع الكلمات ، الآمر بالخيرات ، الناهي عن المنكرات ... وعلى آله وصحبه السادات ... وسلم تسليما كثيراً . وبعد :

وتنطوي صحيفة رمضان ، وتنفض سوق كانت عامرة ، ربح فيها من ربح ، وخسر من خسر ، وحرم من حرم ، على تفاوت كبير في درجات الربح أو الخسر أو الحرمان .

وتعود الحياة الرتيبة الأولى ، فلا حرج اليوم على أحد أن يستمتع في أية ساعة شاء من ليل أو نهار بالحلال الطيب من متع الحياة .

وترى الصائمين والمفطرين اليوم ، فتحسبهم قد أصبحوا على قدم المساواة ، ولكن هل هم في الحقيقة سواء ؟.

فلنراجع معهم حسابهم ! .

وقبل أن نشير إلى بعض المعاني الإيجابية التي أفادها الصائمون ، وحرم ثوابها المفطرون ، ينبغي أن ننبه إلى ناحية سلبية ، ولكنها أساسية من حق الصائمين أن يفيدوا بها في رصيدهم . تلك هي السلامة والنجاة من المخاوف الوهمية ، التي كانوا بها يخوّفون ، فقد قيل لهم عند إقبال

رمضان : إنكم سوف تموتون جوعاً ، أو تهلكون عطشاً ، أو تنهكون مرضاً. فانظر اليوم إليهم واملأ ناظريك : إنهم لم يموتوا جوعاً ، ولم يهلكوا عطشاً . ولم ينهكوا مرضاً ، كما كان يتوقع الشامتون بهم : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ »[1]. إنهم لمغامرون ، إنهم لن يخرجوا من هذه المغامرة سالمين ، قالوا : فلنجانب إذن طريقهم ، ولا نتبع سبيلهم . لنكن أشد منهم حرصاً على حياتنا ، وعلى عافيتنا ، فأي شيء أثمن في الدنيا من الحياة ؟. وأي شيء أثمن في الحياة من العافية ؟ .

هكذا كان الشيطان يخوف بالأمس أولياءه ، وسيدفعهم إلى السخرية من أعدائه . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، ومن سخريتهم يسخرون . لقد خرج المؤمنون من هذه التجربة سالمين ، فخيبوا شماتة الشامتين ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ! .

هذه واحدة ، هم جديرون أن يفرحوا بها .

تلك كانت نعمة السلامة ، فانظر بعدها إلى نعمة الغنيمة ! .

لقد خرج المؤمنون من هذه التجربة أصلب عزماً ، وأقوى قلباً ، وأصدق تجربة لمشاكل الحياة ، وأكبر أملا في اقتحام صعابها . لقد

---

(١) سورة المطففين : ٢٩ – ٣٢ .

غالبتهم المـادة فغلبوها ، وأرادت الشهوات أن تستعبدهم فاستعبدوها فأي شيء يقف اليوم أمام عزيمتهم ؟ . وأي شيء بعد اليوم يخفض من عالي همتهم ؟

إن شيخوخة الشيخ منهم لتتحدى جلادة الشبيبة في فئة من الشباب فروا من الميدان ، وهربوا من هذه التجربة اليسيرة هروب الجبان .

مسكين من لم يجرب تجربة الصوم !. إنه لم يذق لذة هذا الانتصار وما أدراك ما هذا الانتصار ؟. إنه انتصار يسمو على كل انتصار . أرأيتك حين تنتصر على عدوك المجهز بالسلاح والعتاد المؤيد ، بالحلفاء والأنصار ؟ ألا تراه نصراً جديراً بالفخر ؟. إنه مع ذلك انتصار رخيص بالقياس إلى هذا الانتصار : ذلك أنك حين تصارع عدوك تصارعه وقد جندت له كل قوتك ، عقلك ، وقلبك ، وشهوتك وغضبك . وحسك ووجدانك .

أما حين تصارع نفسك التي بين جنبيك فإن أكثر هذه القوى تخذلك ، وتتخلى عنك ، وتتركك وحيداً في الميدان ليس معك إلا دينك وضميرك . فإذا انتصرت والحالة هذه فقد برهنت على أن فيك عنصراً سماوياً نبيلا ، وأن فيك جندياً من جند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

نعم. ليست حياة الصوم دائماً حياة صراع وكفاح ؛ عند الوادعين القادرين تجربة محتملة ، ولكنها مسئولية ملتزمة ، فمن لم يشعر فيها

بلذة الانتصار على الهوى شعر فيها بلذائذ أخرى . وذلك أنه كلما قطع مرحلة من صومه وجد غبطة بنجاحه وتوفيقه في تلك المرحلة ، وأحس في نفسه خفة ونشاطاً ورغبة في متابعة السير والعمل . . حتى إذا ألقى العصا واستقر به النوى في ختام عمله بعد إتمام واجبه – وجد هنالك من ثلج الصدر . وطيب النفس وقرة العين – ما لا يجد بعضه القاعدون الوادعون .

مسكين من لم يجرب تجربة الصوم !. إنه محروم من هذه اللذائذ كلها . إنه محروم حتى من تذوق المتع الحسية . إن كان لا يدرك إلا المتع الحسية . أما درى أنه كلما اشتدت المخمصة كان الطعام أهنأ وأمرأ وكلما اشتد الظمأ كان الشراب أنقع وأنفع ؟ .

هكذا يجتمع للصائم عند فطره متعة بالسلامة والعافية ، ومتعة بالانتصار على الهوى ، ومتعة بالتوفيق لإتمام العمل ، ومتعة بالري على ظمإ ، والنيل بعد انتظار وطلب . كل هذا ، وأمثال هذا ، إنما تمثل إحدى الفرحتين ، بل أدنى الفرحتين . أما الفرحة الكبرى المدخرة له فإنه لا يحيط بها وصف الواصفين ، ولا يقدر قدرها إلا رب العالمين .

في الحديث الصحيح القدسي يقول الله تبارك وتعالى : (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ : الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ . لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ) .

نقول : أما الفرحة الأولى فقد فزنا بها . وأما الفرحة الأخرى فإنا لها منتظرون وإنا إلى الله فيها راغبون : « قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »[1].



(1) سورة يونس : ٥٨ .

وداع رمضان

الحمد لك يا رب أعنتنا على الصيام . فأوزعنا اللهم أن نقوم بواجب الشكر على نعمك ، وتوفية حق كرمك . وأفضل الصلاة والسلام على من يشفع لنا يوم الحساب ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم على طريق الحق والصواب .

وبعد : مهلا مهلا شهر رمضان !.

ما أعجلك في ارتحالك عنا أيها الضيف الكريم !.

هلا أمتعتنا بك فترة أخرى يتدارك فيها المقصرون تقصيرهم ، ويزيد فيها المشمرون تشميرهم !.

يا سبحان الله !.

ما أسرع ما يطوى العمر !. وما أعجل ما تقضى الأيام والليالي ، كأنها أوراق الخريف عصفت بها ريح القدر !. وهل الحياة كلها إلا لحظات محدودة ، وأنفاس معدودة ، تغمر الناظرين إليها في ساعة إقبالها ، فإذا أدبرت فإنما هي حلم من الأحلام ، وإنما البقاء والدوام لمن له البقاء والدوام ، كل شيء هالك إلا وجهه ، ويبقى وجـه ربك ذو الجلال والإكرام .

شهر رمضان !. أين هو شهر رمضان ؟. ألم يكن منذ لحظات بين أيدينا ؟. ألم يكن ملء أسماعنا . وملء أبصارنا ؟. ألم يكن هو حديث منابرنا . وزينة منائرنا . وبضاعة أسواقنا . ومادة موائدنا وسمر أنديتنا وحياة مساجدنا ؟. فأين هو الآن ؟.

ها هو ذا يهز آخر خيط من خيوطه . لينزعه من أفقنا !. ها هو ذا يكابد آخر نفس من أنفاسه . ليلفظه أمام أعيننا !. فلن تكون إلا طرفة عين حتى تنفضّ مواسم التقوى . وبلابل الروح قد هدأ تغريدها . وإلى الله المصير .

أي شهر رمضان !.

ما أبعد الشبه بين يوميك : يوم قدومك . ويوم رحيلك !.

لقد كان يوم إقبالك يوماً تفتحت له عيوننا وقلوبنا . فاستقبلناك ملء النفس غبطة واستبشاراً وأملا : استبشرنا بعودة مجالك الطهور الذي تسبح فيه أرواحنا بعد جفافها وركودها . واستبشرنا بساعة صلحنا مع ربنا بعد طول إعراضنا وإباقنا . وكم تمنينا أن نكون أوفياء بحقك !. وكم أملنا أن نكون أقوياء على برك ورفدك !.

أما اليوم فإننا نودعك وملء النفس وجل وخجل . وإشفاق وقلق : لا ندري إلى أي مدى كان وفاؤنا بواجب العمل ؟. وإلى أي مدى كان تحقيقنا لفسيح الأمل ؟. فليت شعري !. كيف وجدتنا ؟. وماذا عسى أن تكون حملت معك من ذكرياتنا ؟.

هل قبلت أعذار المعتذرين ؟. هل أرضاك صوم الصائمين ؟. هل أعجبك قيام القائمين ؟.

ما أكثر الذين اعتذروا إليك بمشاغلهم ومتاعبهم !. وما أكثر الذين تعللوا لك بضعفهم ومرضهم ! وما كان الذي بهم والله من مرض الأبدان ولا من ضعف وسائل الإمكان . ولكنه مرض القلوب . وصغر النفوس وخور العزائم . لقد خانتهم رجولتهم فلم يحاولوا أن يقتحموا العقبة ، بل فروا من الميدان قبل الملحمة . وحكموا على أنفسهم مقدماً قبل التجربة .

فدعهم الآن يقاسوا مرارة الألم . ويتجرعوا مرارة الندم إذ وجدوا إخوانهم الذين قبلوا التجربة قد خرجوا منها بسلام . فلم تنقص منهم شيئاً . بل زادتهم إيماناً إلى إيمانهم . وقوة إلى قوتهم . وتبين أن تلك المخاوف إنما كانت وهماً من الأوهام . وخدعة من خدع الشيطان . يخوف بها الأطفال وأشباه الأطفال !.

أي شهر رمضان !.

قل للذين خدعوا هذه المرة : لا تخدعوا بمثلها مرة أخرى . وقل لهم وأنت على عتبة باب السفر : من أضاع الفرصة في أيامي فليتداركها في أيام أخر . قل لهم : إن باب التوبة مفتوح على مصراعيه : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً » .

(أما بعد) : يا شهر الصيام . فإني أخشى أن تكون حفظت في سجلك عن جمهرة الصائمين القائمين أشد وأقسى مما سجلته على كثير من المفطرين المقصّرين . فقديماً قيل : رب معصية أورثت ذلة وانكساراً ، خير من طاعة أورثت علواً واستكباراً . فهؤلاء المفطرون إذا اعترفوا بذنوبهم ، وشدوا ما تراخى من عزمهم - كانوا أحرياء أن يتوبوا وأن يتوب الله عليهم . أما أولئك المتبجحون الذين يحسبون أنهم متى أمسكوا عن الطعام والشراب فقد أدوا كل حقك ، وقاموا بكل واجبك ، على حين أنهم في صومهم لم يدعوا قول الزور ولا العمل به - فهؤلاء هم الذين أساءوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وهؤلاء هيهات لهم أن يتوبوا ، لأنهم لا يظنون أنهم اقترفوا ذنباً .

أما دروا أن الله حين نهى الأنبياء أن يوجهوا لآبائهم حرفاً من التأفف والتضجر - كان هذا منه ترقياً وتسامياً بهم في البعد عما وراء ذلك من ضروب الأذى والعدوان ؟. وأنه كذلك حين نهى الصائمين عن طيبات المشارب والمطاعم - كان هذا ترقياً وتسامياً بهم في التطهر عما قبل ذلك من المحارم والمآثم ؟. وهل يعقل أن ينهى الصائم عن رد الإساءة والإيذاء ، وأن يبيح له البدء بالفحش والإيذاء ؟. أليس الصوم كما عرفنا هو أقصى الطهر وغايته ؟. فكيف يؤدي نهايته من لم يؤد ركنه وفريضته ؟.

أيها الإخوة الصائمون القائمون :

أفلا تجلسون معي قليلا نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب ؟ هل نسينا أن الميزان دقيق ، وأن الناقد بصير ؟. فماذا يكون جوابنا لو قيل لنا : لقد كنتم في صيامكم لاغين رافثين ، وكنتم في قيامكم ساهين لاهين ؟. من منا إذن لم يلغ ولم يرفث في صيامه ؟. ومن منا لم يله ولم يسه في قيامه ؟. وكيف إذن نتكل على أعمالنا ؟. وكيف نطمع إلا في رحمة ربنا ؟.

أيها الإخوة المؤمنون :

هل أدلكم على طهرة تنقون بها أعمالكم من أدرانها ، وتخلصونها من شوائبها ؟.

اغتنموا هذه اللحظات الباقية أمامكم ، فاغسلوا قلوبكم الان بدموع الاستغفار ، وارفعوا أكف الضراعة إلى الودود الغفار ، قولوا معي :

« ربَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنا منَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فآمنَّا . ربَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبنَا وَكفِّرْ عنَّا سَيِّئَاتِنا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ »[1].

وطهرة أخري أعظم وأقوم : أن تودعوا هذا الضيف الكريم ، بما يودع به الضيف الكريم ، فإن الضيف الكريم لا يودع بمجرد التحيات والتسليمات ، ولكن يجهز بالتحف والطرف ؛ ويزود بالهدايا والعطايا . أتدرون ما تحفة ضيفكم ؟. زكاة فطركم ؛ إنها طهرة صومكم ، وزكاة نفوسكم ، وصلاح أمركم . تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال ، ورزقنا وإياكم الصدق والإخلاص في كل حال . آمين آمين .

(١) سورة آل عمران : ١٩٣ - ١٩٤ .

المعانى الانسانية فى عيد الفطر

الحمد لله الذي أعطى وأنعم . وهدى إلى الرشد وألهم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد . عبده ورسوله . وصفيه وخليله .. وعلى آله وصحابته الكرام . أولي المناقب والأحلام . صلاة وسلاماً دائمين ما دامت الأيام .

وبعد : هل تأذنون لي أن أذكركم بشيء من مطالب الإسلام في عيد الفطر . وشيء من الأهداف التي يرمى إليها من وراء تلك المطالب ؟ .

وهل يأذن القائمون على شئون المجتمع في مختلف الأقطار الإسلامية أن أذكرهم بشيء من واجبهم في القيام على هذه الأهداف . وفي تحقيق تلك المطالب ؟ .

أما أنتم أيها الإخوة . فسأحدثكم قبل كل شيء عن هذا المعنى الذي يخالج صدورنا اليوم . وقد عدنا إلى الاستمتاع الحلال بحرياتنا الطبيعية بعد أن أتممنا رحلة الصوم في جد وعزيمة . وفي صدق وأمانة . هذا الابتهاج والاغتباط لن أحدثكم عنه بوصفه شعوراً فطرياً . ومعنى عادياً ولكني أحدثكم عن نظرة الإسلام إليه ؛ وعن الأسلوب الذي اختاره لنا في التعبير عنه : ذلك أن الإسلام لم يشأ أن يبقى هذا الفرح في صدورنا شعوراً منزوياً منطوياً . ولا أن يتمثل في مظهر تافه خافت . بل طلب

إلينا أن نعلن هذا الابتهاج عالياً مدوياً . وأن نبرزه في صورة حية قوية ثم إنه في الوقت نفسه لم يشأ أن ينقلب هذا الإعلان ضرباً من اللهو الفاجر ؛ أو فناً من العبث العربيد الماجن ، بل أراد أن يتمثل في صورتين كريمتين ، صورة روحية نتوجه بها إلى الله ذكراً وشكراً ، وتكبيراً وتحميداً ، وصورة إنسانية نتوجه بها إلى الخلق عطفاً ورحمة ؛ ومعونة وتكرمة .

لن أطيل حديثكم عن الجانب الروحي . فها نحن أولاء نرى شعائره ظاهرة باهرة في تلك الجموع الحاشدة للصلوات والدعوات . صادعة : «باسم الله معلية كلمة الله» . ولكني أريد أن أحدثكم عن الجانب الإنساني الذي هو في حقيقة الأمر آكد الجانبين . وأوجبهما في نظر الإسلام . وأعمقهما أثراً في حياة الأمة الاسلامية ؛ ذلك هو نظام الصدقات والزكوات الذي كتبه الإسلام علينا في نهاية رمضان . إنه لتشريع فذ في بابه . لا أقول : إنه منفرد وحيد بين التشريعات العالمية فحسب ، بل أقول : إنه لا نظير له في التشريعات الإسلامية نفسها . ذلك أن الزكاة في العادة إنما تفرض على الأغنياء في فضول أموالهم . أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء : يواسي بها الغني الفقير . ويواسي بها الفقير من هو أفقر منه . فكما كانت ضريبة الصبر والزهد فرضاً في رمضان على الجميع أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميع : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ

قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ »[1] . هكذا تساوينا أمس كلنا في الجوع والعطش ، وهكذا يجب أن نتساوي اليوم كلنا في الشبع والري . هذا هو الشكر العملي ، وما كانت صلاة العيد وتكبيراته إلا ضرباً من الشكر القوى . فهل تعلمون أن الله لا يستمع إلى قول إلا إذا كان يصدقه العمل ؟. هل تعلمون أن الكلم الطيب حين يحاول الصعود إلى السماء يتوقف في أثناء الطريق انتظاراً لرفده من العمل الصالح ، فإن لم يصل إليه هذا الرفد رد على صاحبه ، وإن وصل إليه رفعه حتى يتم معراجه إلى الملإ الأعلى ؟ : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[2] .

إني أدعوكم إلى التفكير ملياً في سر هذا التشريع ، لتعلموا أنه تشريع مثالي يخلق المجتمع المثالي ، انظروا إلى هذه التربية العملية على الوحدة والمساواة ؛ مرتين تتناول الأُمّــة كلها جملة واحدة لتتذوق مع المحرومين طعم العوز والحرمان ، ثم تصعد الأُمّة كلها آخذاً بعضها بـأيدي بعض ، لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان ، وتتذوق مع المرزوقين طعم الارتفاع الذي يليق بالإنسان . بهذا وحده يكون يوم العيد يوم بهجة وسرور ، فهل أعيادنا حقاً أعياد بهجة وسرور ؟ .

كيف تكون اليوم بهجة وسرور لمن تقذى عينه بمناظر البائسين ؟. ويتـأذى سمعه بسؤال السائلين ، ويتفطر قلبه بشكوي الشاكين ؟ . كلا إن الإسلام يطالبنا ألا نسمع اليوم شاكياً ولا با كيا ؛ ولا نرى جائعاً

(١) سورة الطلاق : ٧.   (٢) سورة فاطر : ١٠ .

ولا عارياً . إنه يقول لنا : لا تطلع عليكم شمس هذا اليوم وفي بيت من البيوت جائع أو عريان ، وفي طريق من الطرق سائل أو محروم . يجب أن تملأ البهجة كل النفوس . وترتسم الابتسامة على كل الوجوه ، يجب أن تشعر الأُمّة كلها في هذا اليوم بعزة الاستغناء . وأن تمحى من بينها ذل السؤال .

هذه هي تعاليم الإسلام في نصها وروحها . وإنها لتجربة لها ما بعدها .

والآن أُوجه كلمتي إلى القائمين على شئون المجتمع في مختلف الأقطار الإسلامية : ماذا صنعنا في تحقيق هذه المثل العليا ؟. إلى متى ندع هؤلاء البائسين والمتبائسين في يوم العيد . يطوفون بالأهلين في منازلهم ، ويزاحمون المارة في طريقهم ، ويرهقون المصلين على أبواب مساجدهم ؟. إنها لوصمة في جبين المجتمعات الإسلامية . وإنها في يوم العيد لأكبر عار وشنار .

لقد رسم الإسلام لنا طريق العزة والكرامة . فهل من وسيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمه ؟. الكلمة الآن لجماعات البر في الإسلام ؛ ولسائر منظماته وحكوماته .

الاعياد الاسلامية

« مقاصدها وآدابها »

الحمد لله مشرع الأحكام . المميز بين الحلال والحرام . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أزال بيانه كل إبهام .. وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وبعد : كانت الأُمم الماضية تعرف الأعياد لهواً ولعباً . وشراباً وطرباً وجلبة وصخباً .

بل إن بعض الأديان القديمة كانت تتخذ أعيادها الدينية من مادة الإباحية المستهترة . والفوضى الخلقية السافرة ؛ ناهيك بأعياد (باكوس) عند قدماءِ اليونان . ثم عند الرومان . وهي أعياد كانت تكرر أكثر من مرة في كل عام ؛ وكان يفرض فيها على الرجال والنساءِ أن يخلعوا جلباب العفة والحياءِ . وأن يتحرروا من كل قيود الغيرة والشرف . وأن يطلقوا العنان لغرائزهم الحيوانية الدنيا لكي تقضي لبانتها علناً جهاراً . إرضاءً لآلهتهم فيما يزعمون ؛ حتى أن من تأبى أو تعفف عن المشاركة في هذه الملاهي الداعرة حكم عليه رؤساءُ الدين أن يدفن حياً في مغارات بعيدة وسراديب مجهولة إلى أن يأتيه الموت أو يقضي الله قضاءه فيه .

وفي الطرف الأقصى المقابل لهذه المادية الجامحة نرى الروحية الزاهدة

المنطوية المنزوية تكتفي في تجديد ذكرياتها المقدسة . إما بترديدها في داخل النفس . وإما بالتعبير الخافت عنها في زوايا المعابد . ترتيلا لبعض الدعوات . أو أداءً لبعض المراسم والإشارات .

ويجيءُ الإسلام بموازينه العادلة ومعاييره الدقيقة الفاصلة . فيلقي على فكرة الأعياد ضوءًا جديداً . يبعد بها عن انحلال المادية وفجورها . وعن تزمت الروحية وفتورها . يجمع ما في كلتا النزعتين من خير وسداد وينفي ما في كلتيهما من خلل وفساد . ثم يضيف إليها عناصر صالحة أُخرى . ويؤلف من جملة ذلك صورة حية قوية جميلة في نطاق من الطهر والكرامة . والصون والعفاف .

تلك هي فكرة الأعياد في الإسلام .

فالصبغة الأُولى للأعياد الإسلامية صبغة روحية . لكنه روح غير صامت ولا خافت . إنه روح صادح متوثب . استمع إلى هذا النشيد القوى الذي يتجاوب صداه في الطرقات . على ألسنة الذاهبين إلى العيد أفراداً وجماعات . وفي المساجد على ألسنة المصلين أو المنتظرين لصلاة العيد . وفي البيوت . على ألسنة المصلين عقب صلواتهم المكتوبة في أيام التشريق ؛ وفي منى عند الجمرات ؛ على ألسنة الحجاج .. استمع إلى هذا النشيد . إنه يفجر الروح وانطلاقها فرحاً وابتهاجاً بإتمام رحلتها الشاقة الموفقة . رحلة الصوم أو رحلة الحج . ثم استبشاراً وتطلعاً إلى المستقبل بعين الثقة والأمل . إنه شعار الانتصار الروحي في التجربة الماضية .

والتصميم على متابعة هذا الانتصار الروحي في التجارب المقبلة : الله أكبر ولله الحمد .

هذا العنصر الروحي الحماسي . يطالبنا الإسلام بأن نبرز جوهره في مظهر من الزينة والجمال . وفي جو من المتعة والرفاهية البدنية ، في غير إسراف يشوه كماله . ويقلبه إلى ضده .

نعم لقد كانت فريضة التقشف والحرمان ضريبة محتومة في زمن الصوم وزمن الحج . فإذا جاء يوم العيد فلا تقل : قد حل ما كان محرماً. ولكن قل : قد وجب ما كان محرماً وحرم ما كان واجباً : نعم لا صوم اليوم ولا حرمان من الطيبات : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »[1] . ثم لا تقشف اليوم ولا حرمان من الطيب والزينة فليأخذ كل منا أحسن زينته . وليظهر أثر نعمة الله عليه ، فهذا يوم إظهار النعم . ثم لا تزمت ولا حرمان اليوم من اللعب واللهو البريء المباح . يروي أصحاب السنن عن أنس – رضي الله عنه قال :

قدم النبي – صلى الله عليه وسلم – المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما . فقال : (مَا هٰذَانِ الْيَوْمَانِ ؟) . قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال : (قَدْ أَبْدَلَكُمْ اللهُ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا ؛ يَوْمَ الْأَضْحى وَيَوْمَ الْفِطْرِ . .) .

(١) سورة الحاقة : ٢٤ .

ويروي مسلم عن عائشة – رضي الله عنها ، قالت : دخل علي النبي – صلى الله عليه وسلم – في يوم عيد ، وعندي جاريتان تغنيان ، فلم يقل شيئاً ، ولكنه اضطجع على الفراش وحول وجهه . ثم دخل أبو بكر فانتهرني وقال : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ؟. فقال – صلى الله عليه وسلم – : (دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً ، وَهٰذَا عِيدُنَا) . قالت عائشة : وكان السودان يلعبون بالدرق والحراب فإما سألت النبي وإما قال هو لي : (تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ ؟) قلت : نعم . فأقامني وراءه ورأسي على منكبيه وخدي على خده حتى إذا مللت قال : (حَسْبُكِ ؟) . قلت : نعم .

ولا يفوتني أن أقول في صدد هذا اللون من اللعب المشار إليه في حديث عائشة : أنه ليس لهواً سائغاً مرخصاً فيه فحسب ، بل إنه متى صلحت فيه النية كان عملا يندب إليه الإسلام ، ويحض عليه كما يحض على الرماية والسباحة والعدو وركوب الخيل ، وسائر ضروب الرياضة البدنية النافعة ، فإنها تكسب صاحبها مضاء في العزيمة ، ومناعة في البدن ، وتجعل منه جندياً معداً لحماية الدين والوطن . فما أحرانا بأن نحيي هذه السنن الكريمة في أعيادنا .

هكذا تلتقي في الأعياد الإسلامية روحيتها المنطلقة السامية ، وماديتها النافعة الجميلة الطاهرة البريئة . على أن الإسلام لم يكتف في أعياده بهذين العنصرين حتى عززهما بثالث هو آكد الجميع عنده وأحبها إليه

ذلك هو المعنى الاجتماعي الإنساني الذي جعل به الأمّة جسداً واحداً . لا بوحدة شعارها وشعورها فحسب . ولا بمظهر اجتماعها الباهر في شعائر الذكر والصلاة وكفى . ولا بهذا التلاقي الأليف الودود . والباش الباسم الذي ندب إليه كل مسلم يلاقي أخاه في يوم العيد . ولكن بمعنى أقوى من ذلك كله : بنظام المشاركة المالية الفعلية التي شرعها في ذلك اليوم بين أعضاءِ الجماعة ؛ ترفيهاً عن المعوزين منهم وإغناءً لهم عن ذل السؤال يومئذ . تلك هي شريعة الزكاة في عيد الفطر . وشريعة الضحية في عيد النحر : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ »[1] . « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »[2] .

« أما بعد » فقد ناديت بوجوب تنظيم هذه المبرة الإسلامية التي كثيراً ما يحرم آثارها مستحقوها ، وكثيراً ما يتكرر بذلها إلى غير مستحقيها . لقد ناشدت حكومات الإسلام ومؤسساته الاجتماعية أن تتولى بنفسها جمع هذه الملايين المبعثرة ، وتوزيع ما ينبغي توزيعه منها على من يستحق ثم وضع ما يفضل من حصيلتها في صندوق تدعم به المشروعات الاجتماعية الكبرى . ولقد ناشدت أولي الأمر أن يقوموا في أيام الأعياد على الأخص بحملة تطهير تخلى بها الطرقات العامة ، وأبواب المساجد ، وأبواب البيوت ، من تلك الأيدي الممدودة للسؤال ؛ تلك الوصمة التي تشوّه

---

(1) سورة الكوثر : ٢ .　(2) سورة الأعلى : ١٤ — ١٥ .

جمال العيد وتتحدى النظام المثالي الذي وضعه الإسلام التمادي من هذه المأساة .

لقد ناشدت من قبل وناديت ، واليوم أكرر هذا النداء وأجدد هذه الذكرى . وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

الحج ووحدة الشعوب الاسلامية

الحمد لله الذي أحسن كل شيءٍ خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين ، ثم جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتناصروا . وبطوناً وفصائل ليتآلفوا ويتظاهروا . . وأفضل صلوات ربي وأجلّ تسليماته على خاتم النبيين والمرسلين . ومن بعثه الله رحمة للعالمين . . . وعلى آله وصحبه والتابعين . ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

هل أنت قريب عهد بالاطلاع على خريطة العالم الإسلامي ، وعلى موقعها من الخريطة الجامعة ؟ .

إن لم تكن قريب العهد بها فإننا نعيدها إلى ذاكرتك ، ونقرّب لوحتها إلى خيالك ، حتى كأنك تراها رأي العين .

جاوز ببصرك منطقة الثلوج المتجمدة في شمالي القارات الثلاث ، وجاوز ببصرك من الناحية الأخرى منطقة الثلوج المتجمدة في جنوبيها وتخط كذلك المناطق المتاخمة لهاتين المنطقتين ، أو القريبة منهما . . فإذا جاوزت هذين الطرفين في أعلى الخريطة الجامعة وأسفلها فأقبل على الرقعة المتوسطة بينهما ، مبتدئاً من أقصاها في المغرب على شاطئ المحيط الأطلسي متجهاً نحو المشرق ، وانظر ما ترى .

إنك سترى رقعة فسيحة الأرجاء متلاحمة الأجزاء ، تصطبغ بلون واحد ، وترتسم أمامك في صورة طريفة تستوقف النظر وتستأثر بالانتباه إنها صورة جمل ضخم ، قد برك على الأرض بمؤخرته ، ولكنه أخذ يهم بالنهوض ، فنصب ساقيه الأماميتين ، ورفع رأسه ومد عنقه ، وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل ، وتدلى من عنقه حبل ثان ، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل ثالث ، كأنه المقود في يد الراكب . أما مبرك الجمل فهو الجزءُ الأعظم من القارة الأفريقية ، أعني كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر ، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغندة . وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال . وأما عنقه ورأسه الممتدان في قلب القارة الآسيوية فهي بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن . وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادي أمام الجزر اليابانية ، وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادي والهندي وهناك تؤلف مجموعة الجزر الأندونيسية . وأما المقود الذي يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوروبية تبتدئ من الأقطار التركية ، وتسير في اتجاه شمالي غربي حتى تصل إلى قرب بحر البلطيق .

دع عنك الآن هذه التفصيلات الجزئية وألق على الخريطة نظرة عامة جامعة . أرأيت الكتلة العظيمة المعترضة في صلبها من الغرب إلى

الشرق ، وسطاً في موقعها بين الشمال والجنوب ، وسطاً في جوها غالباً بين البرد القارس والحر اللافح ؟ .

في هذه الرقعة الوسط ، وفي هذا الجو الوسط ، تستوطن الشعوب الإسلامية التي جعلها الله أمّة وسطاً ؛ وسطاً في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة والجحود ، وسطاً في شريعتها ، نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب ، والمثالية الذاهلة العقل ، وسطاً في مطامحها بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة ، والحرص الجشع ، وسطاً في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة ، وسيط سلام بينهما ، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها .

هذه الأمّة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافي وحدة طبيعية جامعة جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة . وحدتين لو أثمرت كل منهما ثمرتها في مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الإسلامي . كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الإسلام تلك الحواجز الإقليمية في شئون الاقتصاد والإنتاج ، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعاً ينشر فيها الرغد والرخاء ، ويحقق لها الاكتفاء الذاتي والاستغناء عما سواها . وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك الفوارق والسطحية بين شعوب الإسلام في ألسنتها وألوانها ، وفي مذاهبها وعاداتها ، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية ، وأن توجه رءوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمي والأدبي ، ورءوسها المدبرة إلى تنسيق خططها السياسية

والاجتماعية . وأن توجه جيوشها إلى التكتل في الدفاع عن كل شبر من أرضها . فكلما اشتكي من جسم الإسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية .

نعم . لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الأمم الإسلامية من أرغد الأمم عيشاً . وأعظمها قوة . وأتمها عزة .. فياليت شعري . ما الذي قعد بها عن بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير في يدها مفاتيحها المادية . وبعد أن وضع الإسلام في يدها مفاتيحها الروحية ؟ .

لقد كان المجال يكون فسيحاً في الجواب عن هذا السؤال . وفي التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود لو كان الإسلام اكتفى بتقرير هذه الحقائق والمبادئ . إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظرية لا يدركها إلا الأفذاذ الذين تتسع آفاقهم ، حتى يستوعبوا خريطة العالم الإسلامي في نظرة . ويستوعبوا عقيدة الإسلام وشريعته في فكرة .

ثم كان لهم أن يعتذروا بأن إقامة هذه الوحدة عبء جسيم لا يسعى إلى حمله طائعاً مختاراً من بين هؤلاء الأفذاذ ، إلا عبقري يؤمن في قرارة نفسه بأن له رسالة إصلاحية في هذا العالم . أما الجماهير والدهماء ، فإنهم لا يمتد نظر أحدهم إلى أبعد من قطره أو إقليمه ، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته ، أو نطاق حرفته .

فالرجل الذي لم ير في حياته هندياً ولا صينياً ولم يعرف روسياً

ولا تركياً . ولم يعامل صومالياً ولا سنغالياً . كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم . وأن يهتم بشئونهم وشئون أقوامهم ؟ .

ألا فقد أبطل الإسلام هذه الحجة . وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار . إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية . ولكنه وضع إلى جانبها نظاماً دقيقاً إلزامياً . وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامي مركزاً في بقعة .

أتدري ما هذه البقعة ؟. إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب . إنها القطب المغناطيسي الروحي الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق . إنها الكعبة . البيت الحرام . ومكة . البلد الحرام . ومنى : معسكر الحرام . وعرفة . عتبة باب الحرم . ذلكم هو مهد الإسلام في طفولته ومبعث نشاطه في فتوته . جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتماً على كل مسلم يستطيع إليه سبيلا . ولو مرة في حياته . فليس لأحد منهم إذن أن ينطوي على نفسه في قطره وإقليمه ، وأن يقول : إني لم أر في حياتي مشرقياً ولا مغربياً . إنه يجب علينا ديناً أن يرحل ليرى ويسمع ، وليندمج في هذه الكتلة الإسلامية الكبرى ، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة ، فإنه لا يباح لجماعة المسلمين أن يقطعوا هذه الشعيرة الموسمية ، ولا مناص من أن تتجمع الوفود الإسلامية هنالك في كل عام في وقت واحد في صعيد واحد ، بل في زي واحد ، وأن ينشدوا جميعاً

نشيداً روحياً واحداً ، تردد معهم الجبال والأكمات ، فتتجاوب أصداؤه في قلوبهم ، وتنصهر نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك ، والوجدان الموحد .

تلك هي تجربة الوحدة الروحية ، تكملها وتتوجها تجربة الوحدة الاجتماعية ، ذلك أن الإسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب ، ولكنه جعله في الوقت نفسه قياماً للناس وموسماً لتبادل مصالحهم ، في مختلف وجوهها وأنواعها . بل إنه لأمر ما جعل هذه قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج . ألا نسمع إلى قول الله – جلت حكمته – : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ »(١) .

إنه تطبيقاً لهذا المبدإ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة ، وأن يمكثوا هنالك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية متكشفاً كل منهم عن زيه ومهنته ، وجنسه ولهجته ، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا ، وهم في أوضاعهم الطبيعية ، حتى تبرز بينهم صورة هذه الرحلة الإسلامية المختلفة المظهر ، المؤتلفة الجوهر .

هل فقه الناس إذن مغزى هذه الشريعة ؟. وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آن في نطاق أوسع ، وعلى مقياس حقيقي مكبر ؟ .

فقهنا الله في أسرار شريعته ، وأدبنا بآدابها .. آمين .

(١) سورة الحج : ٢٨ .

الجوانب الاجتماعية فى الحج

الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، الذي لا فوز إلا في طاعته ولا عز إلا في التذلل لعظمته . . والصلاة والسلام على إمام المتقين ، المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين . وبعد :

ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الإسلامي ، تلك هي الطبيعة الثنائية المادية الروحية والإنسانية الربانية والفردية الاجتماعية التي تسري باطراد في شعائر الإسلام . حتى أرى كل قاعدة من قواعدها الأربع تمثل قطباً ذا طرفين : طرف يربط المؤمن بربه ، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين . ظاهرة مطردة ، كلما ازددنا في دراستها إمعاناً ، زادتنا إيماناً بأن الذي فصل هذه الشريعة على مقياس الإنسان هو الذي فطر الإنسان روحاً في مادة ، وفرداً في جماعة .

هذه الطبيعة الثنائية قد تكون جلية واضحة ، في بعض الشعائر دقيقة عميقة في البعض الآخر ، ولكنها في شعيرة الحج أوضح وأجلى منها في سائر المواطن .

ولا نريد أن نطيل في وصف الجانب الروحي من هذه المأدبة الكبرى التي أعدها الله للمؤمنين عند أول بيت وضعه للناس ، فذلك الجانب

الروحي منها هو مثار الانبعاثة الأولى في قلب كل مؤمن يريد أن يلبي هذه الدعوة . ألا تراه حين يتفرغ لها من مشاغله وشواغله ، ويفارق من أجلها أهله ووطنه ، مضحياً بماله ووقته وراحته ، متجرداً حتى من ثيابه وزينته ، محتملا في هذه السبيل كل وصب ونصب – إنه يرى في ذلك كله مرضاة لربه ، ومطهرة لذنبه ، وبرهاناً على الإيمان ، وزاداً من التقوى حتى إذا بلغ غاية سفره فأطل على الحرم الأمين ، ثم وطئت قدماه مهبط الوحي الأول ، أحس هنالك بشعور عميق من السكينة والطمأنينة ، ثم أحس برباط وثيق من القرابة والنسب ، ينتظم به في أسرة النبيين والصالحين الذين رفعوا هذا البنيان مناراً وهدىً للناس ، أو الذين اجتذبهم إليه نوره وهداه ، حتى إذا قضى مناسكه ، وأتم شعائره شعر كأنه خلق خلقاً جديداً ، وعاد بريئاً طهوراً كيوم ولدته أمه .

فذلك الدافع القوي الذي يحرك راكد الهمم إلى الرحلة والهجرة ، ثم ذلك الأنس الباطن ، الذي توحي به أرض الحرم ، بما فيها من مشاهد الحاضر ، وذكريات الماضي ، ثم هذه البهجة والغبطة التي تملأ ضمير المؤمن عند شعوره بأداء الواجب – كل أولئك يستمد من معدن واحد وينبع من ينبوع واحد ، هو الجانب الروحي الذي يلمسه كل حاج ومعتمر حتى لو فرض أنه يسافر وحده ، ويقيم وحده ، ويشهد المشاهد وحده .

غير أن هناك بوناً شاسعاً بين فكرة العمرة ، وفكرة الحج ، فلو أن

امرءًا أدى مناسك العمرة كلها منفرداً ، في أي وقت يحلو له من أوقات السنة ، دون أن يرى أحداً ، أو يشارك أحداً في حل أو ارتحال – لأدى شعيرتها ، وفرغت ذمته منها ، ومن هنا يتجلى ما في العمرة من طابع الروحية الفردية ، الذي تتسم به في الأعم والأغلب ، نوافل العبادات ، أما شعيرة الحج فريضة كانت أو نافلة فقد حدد الإسلام لها أشهراً معلومات ، وعين لمناسكها أياماً معدودات ، بل جعل لبعضها ساعات محدودة من تلك الأيام المعدودة ، بحيث لو فاتت فلا قضاء لها ، بل قد يجب العود لها من عام قابل !

هكذا يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك ، في وقت واحد ، وفي صعيد واحد ، بل في زي واحد ، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة في كل موسم ، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الإسلامية ، مجتمعة في ميقاتها من كل عام .

هذا العنصر الجمعي هو إذن ركن ركين ، وعنصر أساسي أصيل ، من دونه لا يكون الحج حجاً ، ولا يقع فرضاً ولا نفلا . ولقد حرص الإسلام على هذا التجمع في الحج حرصاً يفوق كل حرص ، وجعله هو الحلقة الختامية العليا كل عام يتوج بها سلسلة التجمعات المحلية التي دعا المسلمين إليها في مختلف المناسبات : دعا أهل المحلة أو الحي الصغير إلى التجمع في أقرب المساجد خمس مرات كل يوم ، ثم دعا أهل القرية أو الحي الكبير من المدينة إلى التجمع في مسجدهم الجامع

مرة في كل جمعة ، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع في فضائها أو في أوسع مكان منها كل عام مرتين ، لصلاة العيدين .. مراحل متصاعدة ، تنمو فيها روح الجماعة شيئاً فشيئاً ، ويتضخم مظهرها رويداً رويداً ، حتى تصل إلى هذا التجمع الإسلامي الكبير مرة في كل عام ، حول أول بيت وضع للناس .

ما سر تلك العناية البليغة ، بهذا التجمع الموسمي الأكبر ؟ .

لقد كان مقدراً للإسلام أن ينتشر نوره في الآفاق ، على مختلف الأقطار والأقاليم .. ولقد رأيناه بالفعل يبسط جناحيه على الأرض يميناً وشمالا حتى أتى على نهايتها في أقصى الشرق ، وفي أقصى الغرب ، ثم رأيناه في الاتجاه الرأسي يمد قطبيه ما شاء الله أن يمدهمافي الشمال وفي الجنوب . ولئن كان قد توقف سيره بعض الشيء في هذا الامتداد الرأسي – لقد كان ذلك العارض وقتياً ، إذ وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية ، لو رفعت من طريقه لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها . ذلك أن الإسلام فكرة سائغة ، وشريعة عادلة ، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب المنهمر ، لا يصادف أرضاً مطمئنة إلا غمرها وعمرها ، أيا كان جوها وأياً كانت تربتها . وهكذا انفتحت لدعوة الإسلام عقول الأمم وقلوبها ، على تنائي أقطارها ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وأنظمتها وعوائدها وموروثاتها ، فلو أن الإسلام رخص لكل أمّة قبلت دعوته في أن تبقى حيث هي محصورة في نطاق حدودها لا تدري ما يجري وراء تلك

الحدود . من أنظمة وآراء ، أو أنها تسمع بها ولا تراها فتصدق ما يصل إليها من أخبارها – إن صدقاً وإن كذباً – لو أن الإسلام رخص بذلك ، لأفسح إذن الطريق أمام العقائد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات الاجتماعية الخاصة بكل قطر ، ولتركها تربو وتنمو ، وتتبلور وتتجمد حتى تكون عقيدة إلى جانب العقيدة ، بل عقيدة في قلب العقيدة ، وإذن لأصبحت الوحدة الإسلامية وحدة إسمية نظرية ، ولعادت شعوب الإسلام جماعات متنافره متناثرة ، لا قدر الله .

كان من الضروري إذن لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عملية أن يفرض على الشعوب الإسلامية نظام من الاختلاط والامتزاج والتجاور والتزاور ، من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها ، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية إلى التماثل والتشابه ، أو على الأقل إلى التقارب والتناسق إذ يكون هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حسن جميل ، وتهذيب ما هو شاذ متطرف ، ويكون في الوقت نفسه تدريباً عملياً على التسامح والإغضاء عن الفوارق الشكلية التي لا يخشى أن تحدث صنعاً في كيان الجماعة العظمى .

ماذا عسى أن يكون هذا النظام ؟.

نفرض على كل قطر أن يوفد طائفة منه تجوب الأقطار كلها بين حين وآخر ؛ للوقوف على سير عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب

عبادتها ومعاملاتها ، وللسهر الدائب على التنسيق بينها وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر .

يالها من ضريبة قاسية ، ومهمة شاقة عسيرة !. أليس من الخير واليسر أن تجيء الوفود كلها إلى بلد واحد ؟. أو ليس من خير الخير وأيسر اليسر – أن يكون هذا البلد في سرة الأرض على بُعد متناسب من كل أقطارها ، وأن يكون هذا البلد ، هو البلد الآمن الذي يلجأُ إليه المكروبون ويأْمن فيه الخائفون ؟ وأن يكون هذا البلد هو البلد المحروم من ثمرات الأرض الأحق بالبر والرفد ؟ وهو البلد الذي للإسلام فيه رحم تتقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور ، منذ قال إبراهيم – عليه السلام – « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »(١) .

أو ليس من تمام الحكمة أن يكون هذا البلد هو المكان الذي نزل فيه القرآن ، والذي يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن ، ليكون فيه لغير العرب ألفة ما بلغها العرب التي ينبغي أن تكون من عناصر العالمية الإسلامية ؟ وأخيراً ، أليس الخير كله في أن يكون هذا البلد هو البلد الذي فيه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم ؛ مطافهم ومسعاهم ، وموقفهم ومرماهم ؟.

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .

هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوي في مكان يوفون فيه حق دينهم ودنياهم معاً . كما قال – جلت حكمته : « يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ » (١) .

« لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » .. ما أعجب هذه الكلمة ! ما أوجزها ! وما أجمعها ! إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة ، والحرب والقانون ، والعرف ، واللغة ، والآداب ، والعلوم ، وسائر مقومات الحياة الجماعية التي تتأثر أعظم التأثر بهذا الاتصال والتلاقي ، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة ، فتأخذ في التوازن والتعادل طلباً للوصول إلى مستوى واحد .

ولكن ، ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيءُ الفاتر ؟. أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية ، توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الإسلامية الشاملة ؟. بلى ، لقد آن للأمم الإسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة ، والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التي يرون منها نموذجاً مصغراً في هذه الرحلة المقدسة .

---

(١) سورة الحج : ٢٧ – ٢٨ .

يوم عرفـة

الحمد لله رضا نفسه . ولا إله إلا الله مداد كلماته . وسبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله . وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه . وعلى آله وأصحابه .

وبعـد :

في شرق مكة على يسار الطريق الذاهب إلى الطائف . وفي الحدود بين الحل والحرام – ينفرج واد عظيم يحيط به قوس جبلي كبير ، يكاد يكون ملتحماً من جهات ثلاث : الشمال ، والشرق ، والغرب ، ولكنه مفتوح فتحة كاملة من الجنوب ، وعلى ذلك الطريق الذي يمثل وتر القوس ، وعلى امتداد سفح الجبل ، تجري عين زبيدة متابعة للقوس في تعريجاتها ، هذا الوادي العظيم ، هو وادي عرفة ، وهذه القوس الكبيرة التي تحتضن الوادي بذراعيها هو جبل عرفة ، جبل شرفه الله وشرف واديه ، إذ جعلهما مثابة ومجتمعاً لحجاج بيته ، في وقت معلوم من كل عام ، ذلك هو اليوم التاسع من ذي الحجة وليلة العاشر منه .

مثل هذا المكان المبارك – ولشعائر الله المثل الأعلى – مثل قاعة الانتظار التي تسجل فيها أسماءُ الزائرين قبل الحظوة بالاستقبال في الحجرة الخاصة الكريمة ، هكذا قبل أن يطوف الحجيج بالكعبة المكرمة الطواف

المفروض الذي لا يعتد به ركناً من أركان الحج إلا في اليوم العاشر أو فيما بعده ، يجب أن يكونوا قد سجلوا حضورهم قبل ذلك في مدخل الحرم ، أعني قبل حدود الحرم على جبل عرفات ، أو في الوادي الذي يحتضنه ذلك الجبل في اليوم التاسع ، أو في عشيته أو فيهما معاً .

ذلك هو يوم عرفة ، الذي قال فيه الرسول – صلوات الله عليه وسلامه : (الْحَجُّ عَرَفَةُ) . فمن أدرك عرفة ، فقد أدرك الحج ، ومن فاتته عرفة ، فقد فاته الحج من عامه ، ذلك هو يوم عرفة الذي سماه الله : « يوم الحج الأكبر » في تفسير طائفة من الصحابة ، أو هو أحد أيام الحج الأكبر في تفسير طائفة أخرى ، ذلك هو يوم عرفة الذي سجل فيه تاريخ الإسلام ذكرى من أعظم الذكريات ، وبشرى من أحب البشريات : فلقد كان أعداء المسلمين يحاولون بكل الوسائل أن يطفئوا نوره ، وأن يقتلوه في مهده ، وما زال الصراع بينه وبينهم عشرين عاماً أو يزيد ، حتى انتصر الانتصار النهائي باستتباب الأمر له في جزيرة العرب ، وبتطهير الحرم وما حوله من رجس الوثنية وأنصارها في السنة العاشرة من الهجرة . فلما كان يوم عرفة من حجة الوداع في ذلك العام نزل القرآن ، لا ليسجل هذا الحادث التاريخي الحاسم فحسب ، ولكن ليعلن كذلك أنه حادث ما بعده حادث ، وأنه لاخوف على الإسلام بعد اليوم من أعدائه : « الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ » . ولقد كان دستور الشريعة يتنزل فصولا ومواد متفرقة ونجوماً متقاربة أو متباعدة ، وكان

يخشى أن تختم حياة الرسول قبل أن تتم مواد هذا الدستور . فلما كان يوم عرفة من حجة الوداع أعلنت الآية نفسها ؛ أن أمر الشريعة قد أُحكم وأُبرم ، وأن هذا هو مسك الختام ، وأنه لن ينزل بعد ذلك التشريع شرع جديد بتحريم حلال ، أو تحليل حرام . إعلان فذ في تاريخ التشريع السماوي ، فقد كان كل رسول ينبئ أمته أنه سيأتيهم بعده من يكمل لهم البنيان ، حتى جاء محمد خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم – فلما بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، أعلنها الله على لسانه في ذلك اليوم ، شريعة تامة كاملة خاتمة دائمة : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي »(١)

ذلك هو يوم عرفة ، الذي قالت اليهود في شأنه لعمر : إنكم تقرءون في كتابكم آية لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، فقال عمر : وما تلك الآية ؟. قالوا : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » ، قال عمر : والله إني لأعلم في أي يوم أنزلت ، وفي أي ساعة أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – حين أنزلت : أنزلت ورسول الله قائم فينا يخطب ونحن وقوف ، وذلك عشية يوم الجمعة ، ألا وإنهما لنا عيدان . صدق عمر فيوم الجمعة للمسلمين عيد أسبوعي ، ويوم عرفة لهم عيد سنوي يتلوه عيد سنوي .

(١) سورة المائدة : ٣ .

ذلك يوم عرفة في تاريخه المجيد ، وما يوم عرفة في حاضره القريب بأهون منه شأناً في ماضيه البعيد ، إن قدره على الزمان يتجدد ، وإن فضله في كل عام يعود ويتردد ، إنه في موسم الحج ليوم مشهود ، بل هو أعظم وأفخم مشاهده ، أوسعها رقعة ، وأحفلها جمعاً ، وأخلبها منظراً وأعمقها أثراً ، فلو أن أبصارنا وأسماعنا تتخطى هنا الأفق ، وتنفذ من وراء الحجب لترى وتسمع ما يدور اليوم في تلك البقعة المطهرة ، لرأينا وسمعنا ما لا ترى عين ولا تسمع أذن في غير هذا المكان المشهود .

ما تلك الجزيرة البيضاء التي تسد الأفق وتغطي السهل والجبل ؟. إنها كتلة ذوي القلوب المؤمنة يلوحون في ثيابهم البيض كأنها أجنحة الملائكة ، وقد تضاموا وتلاصقوا حاسري الرءوس ، حفاة الأقدام أو يكادون ، باسطي أيديهم إلى السماء ، رافعي أصواتهم بالتلبية أو الدعاء متقطعة أنفاسهم بدقات الخوف أو بخفقات الرجاء ! ياله من موقف: « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ! »[1] يالها من لحظات ، بعيدة الغور في النفوس ، بعيدة الأثر في الحياة ! إنها لحظات التجرد ؛ تجرد عن المال والأهل والولد ، بل تجرد كل امرئ عن نفسه ، ونسيانه لمطامحه ومطامعه ، فراراً إلى الله ، وإقبالا على الله .

ياليت شعري !.. هل يسمع الداعي هنالك نفسه ؟. أو هل يسمع من حوله ؟. لعله لا يسمع شيئاً من ذلك إلا في فترات عابرات ، فإذا رجع

(١) سورة الزمر : ٢٣ .

إليه صدى صوته . أو صدى تلك الأصوات المختلطة . من هذه الجموع الحاشدة . ازدادت روحانيته انفعالا واشتعالا . ثم ارتد أثر هذه الحمية إلى الجماعة . وهكذا دواليك: متوالية هندسية . وربح مركب . يتضاعف على توالي الآنات واللحظات . يالها من نقطة تحول في طبيعة الإنسان ، هذا الإنسان المادي الروحي ، تنصهر ماديته ها هنا انصهاراً . وتذوب ذوباً . فإذا هو قد عاد ربانياً خالصاً وروحاً محضاً . أولئك هم ملائكة الأرض . يباهي الله بهم ملائكة السماء . طوبى لهم . طوبى لهم ، يا ليتنا كنا معهم ! .

أي وفد الرحمن ! .

إن أجسامنا ها هنا موثقة . ولكن قلوبنا بكم ملصقة ، تسير معكم حيثما سرتم . وتنزل معكم حيثما نزلتم . ولئن فاتنا السير في ركابكم إنه لن يفوتنا إن شاء الله اقتفاء آثاركم ؛ إنكم تدعون وتضرعون في عرفات . فلندع نحن ولنضرع في الفلوات والخلوات . إنكم ستكبرون عند الجمرات . فلنكبر نحن في أعقاب الصلوات . إنكم ستذكرون اسم الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام لتأكلوا منها وتطعموا البائس الفقير فلنذكر كذلك اسم الله على ما رزقنا من بهيمة الأنعام ، لنأكل منها ونطعم البائس الفقير .

وأخيراً . فإننا نرجو أن يكتب لنا أجر حجتكم ، وأن ينالنا شيء من دعائكم .

أي وفد الرحمن !.

اذكرونا مثل ذكرانا لكم   رب ذكرى قربت من نزحا

وسلام الله علينا وعليكم ، وعلى عباد الله الصالحين .

الى روضة الرسول

الرائد :

هيا بنا أيها الرفاق هيا !

هيا إلى مشرق النور والهدى !   هيا إلى ساحة الجود !

هيا إلى أرض الحبيب !   هيا إلى روضة الرسول !

* * *

القافلة :

أيها الرائد ، فلتوسع من الخطا   ولنسر خلف خطاك !

أيها الحادي ، وزدنا   من هيام واشتياق بحداك !

* * *

الرائد :

واحر شوقاه !

النفس ظمأى فما تروى !   والروح جوعي ، فما تغتذى ؟

والأرض مدت فما تنطوي ؟   والليل طال متى ينجلي ؟

* * *

القافلــة :

أيها الرائد ، فلتوسع من الخطا ولنســر خلــف خطـــاك !
أيهـــا الحـــادي ، وزدنا من هيــام واشــتياق بحــداك

* * *

الــرائد :

يا ليت شعري ! متى الملتقى ؟ وبعــدكم سيستقر النــوى !
فالركب أضناه طول الســرى! والشــوق أضــراه بعد المدى !

* * *

القافلــة :

مه يا حادي ، لقد برح الشوق بنا ! فما نطيق مزيداً في الانتظار

* * *

الــرائد :

لقد هان يا نفس ما تشتكي ! ووافــاك يا قلب مــا ترتجي
أما ترى طيبة ؟ ها قد بدا نورها وأرض الحمى قد بان مزارها ؟
أحقاً سأدخل في رحاب الرسول ؟ أحقاً سأُعطى جواز الدخــول ؟
أفي يقظــة أنا أم في حلــم ؟ وأنى لمثــلي بهــذا الحــرم ؟
أيهـــا النفس لا تيئسي كــلا ولا تبتئــسي !

دونك باب الحمى فاعتصمي وجاءت الفرصــة فلتغتنمي !
هأنتــذي في جــوار الرســول هأنتــذي في مقــام المثول !
ألا فاجتلى مشهد الجلال الوقور ألا وانهلي من شذا العبير الطهور !
يالها لحظة تنطوي فيها دهور !

أيها الطهر المسجي في ثيابه ! أيها النور المحجب في مشكاته ! كم قدمت في حياتك من عمل ! وكم خلفت وراءك من أثر ! وكم لك في أعناقنا من منن ! منن ليس فوقها إلا منة الله علينا ، حين بعثك بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

ها هنا رفعت للإسلام منارته، ها هنا رسمت للعالم دستوره وشريعته. من فوق هذا المنبر ، كم أقمت من حجة ، وأوضحت من محجة ! وكم استمعت إلى سائل ! وكم حللت من مشا كل !

وفي هذا المحراب ، كم تلوت آيات من الوحي بينات ، خشعت لها النفوس ، ووجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون .

وفي هذه الحجرات ، كم أحييت ليلك ! وكم أيقظت أهلك ! وكم شددت مئزرك في طاعة الله ! وكم كنت في هذه الحجرات بأسلوب عشرتك لأهلك وولدك المثل الأعلى للأزواج والآباء !

وبين هذا المنبر وهذه الحجرات ، كم التحمت صفوف المؤمنين من ورائك ، وانتظموا تحت لوائك ، وكم في هذه الروضة وردت إليك

كتب . وصدرت عنك منها كتب ! وكم استقبلت فيها من وفود ! وكم عقدت فيها من ألوية ! وكم وثقت فيها من عهود !

وفي زوايا هذا المسجد . كم تكدست لديك من أموال الزكوات والصدقات . فلم تلبث أن فرقتها بين مستحقيها . حتى لم يبق منها في حوزتك دينار ولا درهم . ولم يصب أهلك منها حبة . ولا شق تمرة ! لقد صان الله عنها شرفك وكرامتك . إذ حرمها عليك وعلى قرابتك !

ومن حول هذا المسجد وفي خلال هذه المدينة . كم حاولت شيع النفاق والكفر أن تحول الناس عنك وعن مسجدك ! وكم حاكت حولك من دسيسة ! وكم دبرت لك من مكيدة حتى لقد بنى الخائنون مسجداً ينافسون به مسجدك . ضرراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ! وكانت فتنة أطفأتها بما أراك الله من حكمة . وأنزل عليك من سكينة . فلم تقر أعين المنافقين بالصلاة في وكرهم الذي أسسوا بنيانه على شفا جرف هار ، ولزمت مسجدك هذا الذي أسسته على تقوى من الله ورضوان . وهكذا بقي كما تراه راسخاً شامخاً على مر العصور والدهور : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ »[١].

وحول هذه المدينة من قريب أو بعيد . كم تألبت على دعوتك أحزاب ! وكم تحالفت عليها أحلاف . وكان الأعداء في خارج المدينة

(١) سورة الرعد : ١٧ .

قد اتخذوا من أعدائك في داخلها عيناً وعوناً وظهيراً ونصيراً ، فأعلنوها عليك بجمعهم حرباً ضروساً : حرب أعصاب ، وحرب صراخ وضراب فصارعتهم في كل ميدان ، وفللت جيوشهم في كل مكان ، حتى أنه لما فروا عند الصدمة الأُولى في موقعة من المواقع ، تقدمت لجيوش الأعداء وحدك ، وتحديت كتائبهم بعزمك ، وكأنك كنت تصيح فيهم بمقالة أخيك نوح – عليه السلام – : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ »[١] . أو مقالة أخيك هود – عليه السلام – : « فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ »[٢] .

ثم لما التف حولك من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم تفد نفسك بنفوسهم ، ولكنك خضتها معهم كواحد منهم ، فعرّضت جسمك الشريف لطعانها ، ووجهك الكريم لنبالها ، وصرعت وجرحت وسالت دماؤك الزكية ، فما باليتها في سبيل الله ، ولما سقط الشهداءُ صرعي من حولك لم تهن ولم تستكن لما أصابك فيهم ، وما زلت تبذل جهداً إثر جهد ، وتقدم تضحية بعد تضحية ، حتى كان نصر الله والفتح ؛ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فلما مكّن الله لك دينك الذي ارتضى لك ، واستخلفك في الأرض كما استخلف النبيين من قبلك ، وتركت لأُمتك ما أن تمسكت به كان لها عز الدنيا وسعادة

(١) سورة يونس : ٧١ . (٢) سورة هود : ٥٥ .

الآخرة – هنالك أوحى الله إليك أن قد بلغت رسالتك . وأديت أمانتك ودعاك إلى لقائه راضياً مرضياً ، هادياً مهدياً .

فسلام عليك رسول الله . سلام عليك أيها الصادق الأمين . سلام عليك أيها البر الرءوف الرحيم . سلام عليك أيها الحي السخي القوي العفيف الحليم . سلام عليك خير زوج وأكرمه . وأبر والد وأرحمه . سلام عليك أفصح مرب وأحكمه . وأسوس قائد وأحزمه .

سلام عليك يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حياً .

وصايا القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل قوله القول الفصل . والحكم العدل . والآية البادية والحجة الباقية .. وصلى الله تعالى على من جاهد في الله حق الجهاد وبذل جهده في الحرص على نجاة العباد .. وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعـــد :

كلمة وصايا القرآن في مقابلة وصايا التوراة ووصايا الإنجيل ربما تلقي في روع سامعيها أن الشرائع والإرشادات التي يحملها كل كتاب من هذه الكتب الثلاثة تخالف أختيها في الكتابين الآخرين . أو أنها إن اتفقت في تشريع ما فإنما تتفق عرضاً ومصادفة . وأن الذي يتحدث عن أحد هذه الكتب إنما يقوم على كل حال بدعوة طائفية محصورة ، يتوجه بها إلى أهل ملته خاصة .

هذه هي الأخطاء التي أردت بادئ ذي بدء أن أمنع تسربها إلى الأفهام وأن أضع في مكانها طائفة من الحقائق الصحيحة النافعة .

أولى هذه الحقائق أن وصايا القرآن تنتظم وصايا التوراة ووصايا الإنجيل معاً ، بل تنتظم تعاليم الأنبياء والحكماء جميعاً .

والحقيقة الثانية : هي أن تعاليم الإنجيل بدورها تحمل في طيها

تعاليم التوراة كافة . وينساق بنا تقرير هاتين الحقيقتين إلى تقرير الحقيقة الثالثة الكبرى ، وهي أن الوحي السماوي كله لا انقسام فيه وعروة لا انفصام لها .

لا تحسبوا أنني سأُحدثكم ها هنا عن وحدة الهدايات السماوية في إبان نشأتها ، حينما كانت لا تزال غضة طرية ، حديثة العهد بالنزول من السماء ، فذلك أمر قد فرغ القرآن منه منذ قرر أن النبوة كلها ملة واحدة ، وأعلن موقفه من الكتب السابقة ، فجعل دعوتها جزءًا من دعوته وجعل الإيمان بها عنصراً أساسياً من الإيمان به . ولكني سأُحدثكم عن ظاهرة عجيبة ، يثبتها البحث المقارن بين الشرائع السماوية الثلاث ، في صورتها الحاضرة . ذلك أن طابع هذه الوحدة لا يزال بارزاً فيها إلى يومنا هذا ، حتى بعد أن اختلفت نسخ التوراة وصور الإنجيل ، وبعد أن امتدت إليهما يد الزمان بشيء من الزيادة والنقص ، وشيء من التحريف وسوء التأويل ؛ فهي على الرغم من ذلك كله لا يزال فيها جوهر سليم خالد ، ولا يزال يبرز منها خط مستقيم واحد ، يمتد على معبرة التاريخ من التوراة إلى الإنجيل إلى القرآن ، حتى أن الباحث اليقظ حين يتأمل في أسلوب الانتقال بينها يكاد يلمس بيده خط السير الذي سلكه الوحي السماوي من بدايته إلى نهايته . أتدرون ماذا يجد الباحث ؟ . .

إنه يرى الوحي في كل مرحلة من مراحله ، يبدأ بتثبيت الأقدام على المرحلة التي قبلها ، ثم يمضي صاعداً فيفتح أفقاً أعلى ، ويضع

مبادئ أسمى ؛ فإذا جاءت المرحلة التي تليها تلفت كذلك إلى الوراء فأكد المرحلتين وثبتهما ، ثم نظر إلى الأمام فصعد كرة أخرى ، وهلم جرا .

لعلكم أدركتم الآن معنى قولنا : أن الأديان الثلاثة ، تتألف منها شريعة واحدة . هذه الوحدة كما ترون ليست وحدة القول المردد ، والحديث المعاد ، ولكنها وحدة الطريق ؛ تتلاحق خطواته ، وتتصاعد درجاته . أو وحدة البناء ؛ يبدأ بوضع أساسه ، ثم لا يزال تتسع أركانه ويرفع بنيانه ، حتى يصل إلى حد التمام . منهج من التربية والتهذيب قوامه عنصران : عنصر الثبات والخلود ، وعنصر التقدم والتجديد . ويتساند فيه مبدآن : مبدأ المحافظة على القديم الصالح ، ومبدأ الإنشاء والابتكار لكل جديد نافع . قافلة من النور لم تعرف يوماً معنى الرجوع إلى الوراء ، لهدم شيء من صرحها التليد ، أو محو جزء من ماضيها المجيد. كما أنها لم تركن يوماً إلى الجمود والركود بالتكرير والترديد المملول ولكنها سارت إلى الأمام على الدوام ، حتى بلغت مستقرها ، وحتى نزل في ختامها : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(١) .

ولسنا ننكر مع ذلك أنه على جوانب هذه الشجرة الباسقة الخالدة من التشريع السماوي قد نبتت تشريعات وقتية ، مرتبطة بأسباب عارضة زمنية أو مكانية ، ثم لم تلبث أن زالت بزوال تلك الأسباب كما يحدث في كل تشريع حي في القديم والحديث ، ولكن هذه الأعراض الجانبية

(١) سورة المائدة : ٣ .

لا يأبه لها الحكيم الذي ينظر إلى لب الأشياء وجوهرها . فإن مثل هذه التشريعات الوقتية مثل أوراق الربيع تزين أغصانها حيناً ما . ثم تذبل وتعصف بها ريح الخريف ليثبت بدلها في الربيع التالي ما هو أبهى وأجمل . والشجرة باقية على حالها . ترسخ أصولها . وتمتد فروعها وتتابع نموّها غير مبالية بتبديل الأوراق على جوانبها . ذلك تأويل قوله سبحانه : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا »[1] .

فالتشريع الموقوت متى استنفد أغراضه بدل بما هو خير منه . والتشريع الصالح لأن ينسأ في أجله وأن يمد في عمره يعاد تمثله في العهد الجديد إذا كان قد نسي في فترة من الفترات .

هذه شهادة من الآية الكريمة تسجل صحة نظريتنا في تطور التشريع السماوي بوجه عام تطوراً جامعاً لعنصريه الثبوتي والتقدمي . وإننا لنجد تأييدها بطريقة تفصيلية ، في نصوص كثيرة : فنحن نرى القرآن في تنويهه بشأن الإنجيل يجمع له بين هذين الوصفين : أنه مصدق لما بين يديه من التوراة ، وهذا هو عنصر المحافظة على القديم الصالح ، وأنه إلى ذلك هدى وموعظة للمتقين ، وهذه إشارة إلى ما فيه من العنصر الإيجابي الجديد .

وكذلك نرى القرآن يجمع لنفسه هذين الوصفين : أنه مصدق لما

(١) سورة البقرة : ١٠٦ .

بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه ومبين لما وقع فيه من الاختلاف ، وأنه إلى ذلك هدى ورحمة للمؤمنين . وكذلك نرى محمداً – صلوات الله عليه وسلم – لم يدع أنه جاء لينشئ قواعد الأخلاق . بل أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وقال : (مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَجَمَّلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلاَّ وُضِعَتْ هٰذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ . قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) .

وجملة القول : أن الذين سيدرسون معنا وصايا القرآن سوف يدرسون في الوقت نفسه وصايا التوراة ، مزيداً عليها وصايا الإنجيل ، مزيداً عليها ما شاء الله من وصايا الذكر الحكيم .

سلاحان جديدان في أيدي الأعداء

الحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين . ولا عدوان إلا على الظالمين . والصلاة والسلام على محمد النبي الأمي . القرشي الهاشمي الذي أيده الله تعالى بالمعجزات الظاهرة . والجنود القاهرة . وجعله قائداً للغر المحجلين والوجوه الناضرة . صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه الأكرمين .

وبعـــد :

لقد استطعنا أن نقول في غداة الغدرة الماضية : أنها كانت سليمة العاقبة . وأنها كانت فاشلة التجربة . فهل نستطيع أن نقول ذلك غداً إذا تكررت التجربة ؟. وبعبارة أُخرى : هل نحن اليوم لا نزال كما كنا أول مرة ؟ .

لنعد بذاكرتنا إلى ظروف التجربة الماضية . وإلى مقدماتها :

ألسنا قبـــل أن نصطدم بتلك الحملة العسكرية الغادرة ، كنا هدفاً لحملات اقتصادية عنيفة جبارة ، استغلت فيها عزيمتنا على البناء ، فاشترطت علينا فيها شروط قاسية جائرة ؟. فماذا كان موقفنا ؟. لقد رفضنا في عزة وإباء كل معونة مشروطة ، إذ وجدنا في طيها عار الدهر وذل الأبد. فقلنا : تموت الحرة ولا تـأكل بثدييها وتجوع الأمّة ولا ترضى

بالدنيا كلها بديلا عن حريتها .. هكذا كان لنا خلق أبيّ اعتصمنا به أمام كل الوعود والمغريات .

فلما لم تذلنا الحاجة ، ولم تنحن رؤوسنا أمـــام الرغبة ، أخذوا يعالجوننا بالعوامل المضادة ؛ عوامل الخوف والرهبة ، وجاءت القوة الباطشة في البر والبحر والجو ، تحمل إلينا نذر الخراب والموت .. فماذا كان موقفنا ؟. لقد رحبنا بالموت؛ فتحنا له صدورنا ، وفدينا مثلنا العليا بـأموالنا وبـأنفسنا ، وكان شعارنا يومئذ : الموت في سبيل الله والوطن خير من العيش في ظلال الذل والوهن . وهكذا كان لنا دين وإيمان اعتصمنا به أمام كل وعيد وتهديد .

واستيقظ القوم مبهوتين أمام هذا السياج المحكم من الإباء المصمم ولكنهم لم تطل بهم الدهشة ، فإنهم سرعان ما اكتشفوا سر هذه المناعة العجيبة ، إذ وجدوا هذه الأُمة تعتصم وراء صخرتين عاتيتين ، ارتطمت عليهما كل جهودهم ومحاولاتهم ، وفشلت في تحطيمهما كل أسلحتهم وأموالهم : صخرة الخلق الإسلامي المتين ، والتراث العربي الأبي ، وصخرة الدين والإيمان الذي يعمر القلوب .. هنالك أيقنوا أن هذه الأمة ما دامت مستمسكة بـأثارة من خلقها ودينها فلن تلين قناتها ، ولن تسلم زمامها ، وتبين لهم أن اليوم الذي يستطيعون فيـــه تفتيت هاتين الصخرتين هو اليوم الذي يستطيعون فيه اقتحام البناء بخيلهم ورجلهم واشتراء من فيه بذهبهم وورقهم !. وتساءلوا بينهم : لماذا لا يجربون

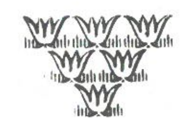
هذين السلاحين الجديدين ؟. لماذا لايصوبون معاولهم إلى تقويض الأَساس بدلا من أن يضيعوا وقتهم في تثليم البنيان ؟.

وهكذا – منذ وضعت المعركة أوزارها ، ومنذ أَخذت العزائم تميل إلى فترة تستجم فيها – جعلوا يغتنمون هذه الفرصة السانحة مضافة إلى فرصة أُخرى ؛ فرصة جهل الشباب بحقيقة دينه ، وسهولة تقبله لكل ما يرضي ميوله وهواه ، فطفقوا يجندون أَقلاماً مأْجورة عرفوها ، ونفوساً مريضة التمسوها ووجدوها ، للقيام بأَكبر حملة إلحادية إباحية ، وما هي إلا عشية أَو ضحاها حتى انتشرت في الجو كل أَنواع الجراثيم الفتاكة بالعقائد والأَخلاق ، وإذا الأَلسنة والأَقلام تحملها إلينا وتلاحقنا بها حيثما كنا ، حتى أَصبحت وباءً عاماً يجب أَن تتعاون الأَمّة والدولة على تطهير الجو منه ، قبل أَن يمسي مرضاً متوطناً ، يهد كياننا ، ويقتل معنويتنا .

إنه لمن المفارقات العجيبة حقاً ، أَننا في الوقت الذي نريد فيه أَن يكون كل فرد من الأُمّة جندياً يذود عن عرين الوطن ، يترك هذا الفرد فريسة لذلك الوباء يجعل منه هيكلا لا روح فيه ، وآلة لا عزيمة لها !.
وإنه لمن المفارقات العجيبة حقاً أَننا في الوقت الذي نسعى ونجد فيه لتسليح أَنفسنا ، نجرد أَنفسنامن أَقوى سلاح عرفته الأُمم الحية ، سلاح القوة المعنوية ، والإيمان بالحقائق المقدسة !.

هذه كلها حقائق ملموسة مجربة . وثمن الإغماض عنها معناه المساهمة في تسليح عدونا بسلاحين خطرين ، لا يغني أَمامهما أَعظم سلاح ، وأَحدث سلاح ، وأَوفر سلاح .

فلنفتح أَعيننا ، ولنعتبر بتجاريبنا وتجاريب الأُمم قبلنا .



ثمرة الجهاد

الحمد لله الذي استسلم كل شيء لقدرته . وخضع كل شيء لملكه وسطوته . والصلاة والسلام على من جاهد في الله حق الجهاد ، وبذل جهده فعلم وهدى إلى طريق الرشاد ، سيدنا محمد خير ناطق بالضاد ، وعلى آله وأصحابه الكرام الأمجاد . وبعد :

هل رأيت ؟ .. هل سمعت ؟ ..

أرأيت كيف أصبح اسم مصر في كل قلب . وعلى كل قلم ، وعلى كل لسان ؟.

أسمعت الصيحات المدوية التي صاحتها الأمم في وجه الباغي على مصر ، حتى زلزلت منه الأقدام ؟.

وهل رأيت أو سمعت قبل اليوم قضية ملأت هكذا سمع العالم وبصره . وسخرت أقلامه ومحابره ، وأثارت أفكاره ومشاعره ؟.

هل رأيت أو سمعت قبل اليوم قضية آزرها الأعداء والأولياء والمحايدون على السواء ؟.

ثم أرأيت كيف فتحت هذه القضية عهداً جديداً لجمعية الأمم فأخرجتها لأول مرة من نطاق الأقوال إلى ساحة الأفعال ، ومن موقف

النصيحة والتوصية إلى مقام الأمر والإلزام ، ثم جهزتها لأول مرة بقوة دولية مسلحة تنفذ بها ما تصدره من أحكام ؟ .

وهل أتاك نبأ الشعوب الشقيقة وغير الشقيقة ، الصديقة وغير الصديقة ، كيف قطعت عن المعتدي معونتها ؟ وكيف حبست ينابيع رزقه في أرضها ؟ .

ثم هل أتاك عنها نبأ الزحف المقدس ، حيث تسابقت فيها مئات الألوف إلى قوائم التبرع ، واحتشدت فيها مئات الألوف حول مكاتب التطوّع منتظرين أول نداء من مصر ليكونوا إلى جانبها بسواعدهم وبأسلحتهم ؟..

بل هل أتاك نبأ الدول الحرة التي تربطها الروابط بدول العدوان كيف أنذرت وهددت بالانشقاق على جماعتها إذا لم ترجع هذه عن عدوانها ؟ .

وأخيراً ، هل أتاك نبأ الدول المعتدية نفسها ، كيف غزاها اليأس والبؤس في عقر دارها ؟ وكيف بدأ التصدع في كيانها : تفككاً بين أحزابها ، أو تمرداً من بعض أقاليمها ؟.

ترى ما السر في هذا كله ؟.

ماذا صنعت أيها الشعب المصري المكافح ، لتثير هذه العاطفة العالمية في وجه المعتدين ؟.

لا شك أنه نصر الله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ »(١) .

ثم ماذا صنعت أيها الشعب البريءُ المسامح ، لتكتسب هذه العاطفة الإجماعية من قلوب العالمين ؟ .

لا شك أنه صنيع الله ، فإنك لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم .

غير أن الله إنما يكتب نصره لأمّة لم تفرط في حقها ، ولم تستسلم لعدوها ، ولم تفقد ثقتها بنفسها ، ولم تنس إيمانها بربها ، وكذلك برهنت أُمتنا على أنها كانت خليقة بنصر الله لها ، إذ أثبتت أنها تملك من هذه الخصائص الغالية ما كان شجاً في حلوق حسّادها ، وغيظاً في صدور أعدائها .

نعم . لقد ظنوا ، وساء ما ظنوا ، وقدّروا ، وبئس ما قدروا . ظنوا أن هذا الشعب الوديع المسالم يمقت الحروب أشد من مقته لعبوديته ، وأنه يحب العافية والسلامة أشد من حبه لحريته ، وقدروا أن غارة واحدة أو بضع غارات – تجعل هذا الشعب ينتفض انتفاضة الهلع والجزع ويرتعد رعدة الرعب والفزع ، ثم لا يلبث أن يرفع بيديه راية السلام بل شارة التسليم والاستسلام .

ألا فقد خاب ظنهم، وكذب حسابهم، ورأوا الآن ما لم يكونوا يرون:

---

(١) سورة الأنفال : ١٧ .

رأوا أُمّة حمية أبية ، تؤثر الموت في سبيل مثلها العليا ، وتأبى الحياة إلا عزيزة كريمة .

فاسأل الغادرين ، ماذا وجدوا أمامهم في أول ثغر ؟. ألم يجدوا قوة بشرية جعلت صدورها لمن خلفها ترساً ، وجعلت أجسامها من دون أُمتها سداً ؟. فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . ولو أنهم اطلعوا من وراء هذا الثغر إلى سائر مدن القطر لرأوا شعباً ينبض قلبه نبضة واحدة ، نبضة النجدة والحمية والشهامة والتضحية .

أفلم يروا إلى هذا الشباب من كل البيوت وكل الأُسر ؟. كيف هجروا طائعين مختارين فراشهم الوثير ، ونظام عيشهم الأثير ، واندفعوا من تلقاء أنفسهم فربضوا في العراء ليلا ونهاراً ، طعامهم القفار ، وفراشهم الغبار ، ولحافهم الزمهرير ، ولكن أعينهم يقظة ساهرة ، وأيديهم على السلاح قابضة غير خائرة ، يستمعون إلى قصف القذائف من حولهم ، وإلى أزيز الرصاص من فوقهم كأنما يستمعون موسيقي الزفاف إلى الملإ الأعلى !

أو لم يروا إلى تلك الأفواج من الطلاب وغير الطلاب ، وهم يتسابقون إلى حمل السلاح ، ويتدفقون إلى معسكرات التدريب ، فإذا قيل لهم : قد غصت الميادين رجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن فاتهم شرف الجندية في يومهم ، واستبطاء للغد في انتظار دورهم .

بل ألم يروا إلى الأمهات وربات البيوت وقد انخرط أبناؤهن أو إخوتهن في سلك الجندية الشعبية ، وشغلت بناتهن أو أخواتهن بخدمة الجرحى ومواساتهم ؟. كيف ضاقت عليهن أنفسهن وجعلن يتحرقن شوقاً إلى القيام بعمل ما ، يؤدين به ضريبة الوطن التي في أعناقهن ؟ .

هكذا — سواءً من كان في الصف ، ومن كان خلف الصف — كان الكل في طريق الجهاد ، وكان الكل يؤثر الاستشهاد على الاستعباد .. ونظر الله إليهم بعين رضوانه ورحمته ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وكف أيدي الناس عنهم ، وأيدهم بنصره وبالمؤمنين .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » (١) .

« وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » (٢) .

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » (٣) . « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (٤) .

---

(١) سورة المائدة : ١١ .
(٢) سورة هود : ٥٢ .
(٣) سورة البقرة : ١٤٣ .
(٤) سورة إبراهيم : ٧ .

فترة لا فتور

الحمد لله مفرج الكروب ، وغافر الذنوب . الذي إذا دعي أجاب وإذا عومل أثاب . والصلاة والسلام على من شرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره ، سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وأصحابه الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين . وبعد :

اليوم سكنت العاصفة بعد حدتها ، وانفرجت الأزمة بعد شدتها .. فهل يكون ذلك إيذاناً بزوال كل الأخطار ؟. وإذنا بالتراخي فيما عقدنا من عزائمنا ؟. كلا .

اليوم خضعت قوى البغي والعدوان ، وبدأت تعد عدتها للرحيل ، راجعة القهقرى خائبة المسعى : « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ، لَمْ يَنَالُوا خَيْراً » ، بل جنوا على أنفسهم ، وعلى أمتهم ، وعلى من جاورهم من الأمم شراً مستطيراً ، وشقاءً طويلا مريراً ، أضعاف ما جنوه علينا في هذه الأيام المعدودة ، وفي تلك الرقعة المحدودة ، التي دنسوا بأقدامهم طهرها ، وخربوا بمدمراتهم عمرانها ، وقتلوا نساءها وأطفالها ، وسرقوا ونهبوا أموالها . سلسلة من المخازي تكللت بها نواصيهم ، تتلوها سلاسل من المآسي يلاقونها إذا رجعوا إلى ديارهم وأهليهم .

فليرحلوا إذن إلى أوجارهم مأزورين غير مأجورين ، رحيلا إلى غير

رجعة . وليوفروا على أنفسهم بعد اليوم عناء التجارب في هذا الوطن العربي الذي أصبح كتلة واحدة ليست فيه رقعة منعزلة عن رقعة ، وأصبح أهله كلهم أيقاظاً حماة للحمى ، أباة للضيم ، يـألم أقصاهم لما يـألم منه أدناهم ، وتطير أخراهم لنجدة أولاهم .

نعم ، ولكن من ذا الذي يأمن ، بعد هذه السابقة الخطيرة ، أن يعود الغادرون لمثلها هناك أو هنا ؟ . . ومن ذا الذي يضمن إذا رفع الغادر إحدى قدميه من أرضنا ألا يضع قدمه الأخرى في أرض جار لنا ، جار ذي قربى ، أو جار جنب ؟.

لقد علمنا القرآن أن الذين لا إيمان لهم ، لا إيمان لهم ، ولا أمان لهم بدت البغضاء من أقوالهم وأفعالهم ، وما تخفي صدورهم أكبر ، وما يبتغونه للعروبة والإسلام أدهى وأمر .

إننا اليوم نعيش ليلنا ونهارنا ، وعزمة المجد في نفوسنا ثائرة ، وصورة البأس في أعيننا ماثلة ، فهؤلاء إخواننا جنود الدولة أمامنا – متحفزون في كل آن ، وهؤلاء أبناؤنا جنود الشعب – رابضون مسلحون في كل مكان ، وهذه مدائننا تلبس في كل ليلة ، من ظلام الليل حداداً يتعظ به كل من له عينان .

فماذا نحن فاعلون غداً ؟ إذا عاد جنودنا إلى ثكناتهم ، ورجع أبناؤنا إلى بيوتهم ؟ وأمست مدننا ، وقد استعادت حلتها وزينتها ، من الأضواء

الساطعة ، والمباهج الممتعة ؟ أفننزع ثوب الحداد عن قلوبنا ، متى نزع من أمام أعيننا ؟ أننام غداً ملء جفوننا ؟ أنأكل ملء بطوننا ؟ أنضحك بملء أفواهنا ؟ .

ليت شعري . . كيف يحق لنا ذلك ؟ .

أيكون هذا هو مبلغ وفائنا لشهدائنا ، ومبلغ حزننا على أيتامهم وأراملهم ، ومدى مشاطرتنا لوجد أهليهم وذوي قرابتهم ؟ . بل أيكون هذا هو مظهر حميتنا لحرماتنا ، ومنهج استعدادنا لأعدائنا ؟ .

يا ويحنا لو غفلنا وعدونا غير غافل ، يا ويحنا لو فترنا أو تكاسلنا وهو غير فاتر ولا متكاسل ! إنه قد يتخذ هذه الهدنة فترة بين حربين فلنتخذها نحن فترة بين دفاعين ، فترة نستجمع فيها قوتنا ، ونستكمل فيها أهبتنا ، ونضاعف فيها إنتاجنا ، وإتقاننا في كل فرع من فروع نشاطنا حتى لا نكون عالة على غيرنا في صغير ولا كبير .

لتكن فترة نضع فيها سلاحنا ، ولكن نجعله دائماً تحت أعيننا ، وفي متناول أيدينا اتقاءً لكل غدر وخيانة ، واستعداداً لكل مباغتة ومفاجأة « وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ » [١] .

نعم ، لتكن فترة مراقبة ومرابطة ، وتزود بكل قوة ، ولا سيما زاد التقوى فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(١) سورة النساء : ١٠٢ .

تعبئة وتعبئة

كتب أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى قائد جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – كتاباً جاء فيه :

« أما بعد : فإني آمرك ومن معك ، بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله ، أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، إنما ينصر المسلمون – على عدوهم – بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة » .

ويمضي عمر في وصيته فيقول :

« واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله . ولا تقولوا : إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا . فرب قوم سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني إسرائيل كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، اسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم والله المستعان » .

هذه هي وصية عمر ، يعبئ بها جنود الإسلام تعبئة روحية ، بالإيمان والتقوى والصلاح والإصلاح ، إلى جانب تعبئتهم المادية ، بالزاد والعتاد والركاب والسلاح .

فما أحرى كل فرد منا أن يضع هذه الوصاة نصب عينيه ، في كل خطوة من خطواته ، ليكون في سيرته وفي سريرته مثالا حيًّا للجندي المؤمن ، لا في البطولة والبسالة فحسب ، ولكن كذلك في الصدق والاستقامة والشرف والأمانة ، وأداء فرائض الله في أوقاتها ، والتزام شريعة الله في أدق حدودها .

ثم ما أجدر كل رب أسرة منا أن يتفقد هذا في ولده ،كما يتفقد سلاحهم المادي أو أشد ، فإنه كما قال عمر : من أقوى العدة على العدو ومن أعظم المكيدة في الحرب . أو كما قال رب عمر : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »(١) .

بل ما أجدرنا كلنا أن نتخذ من هذه الوصية نبراساً نسير على ضوئه وقانوناً نحرص كل الحرص على تنفيذه ، ذلك أننا منذ وطئت أقدام العدو أرضنا – أصبح كل فرد من أفراد الأمّة وحدة عاملة من وحدات الجيش العامل ، وأصبح لزاماً علينا كلنا – رجالا ونساءً ، شيباً وشباباً – أن نؤدي هذه الضريبة الكبرى ، التي يفرضها علينا ديننا ووطننا .

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

فلنتواص إذن فيما بيننا . بما يتواصى به رجال الجيش فيما بينهم .

لنعبئ قوانا إذن تعبئتين : تعبئة عسكرية . بالتسلح المطرد ، والتدريب المتواصل ، وتعبئة روحية . بالإيمان القوي . والعزم الأبي ، في تعظيم لشعائر الدين . واستمساك بأدبه السامي وخلقه القويم .

ولتكن عنايتنا بهذه التعبئة الروحية أتم وأعم وألزم وأدوم ، حتى نكون أهلا لأن يمدنا الله بروح من عنده . وأن يؤيدنا بجند من جنده فإنه ليس يصح في القياس أن نطمع في معونته ونصرته . وفينا من يجاهر بمعصيته ومخالفته .

إن هذه الشعلة الوطنية المقدسة التي نراها اليوم تتوقد في قلوب المؤمنين – لا ينبغي أن يطفئ نارها كاتب ماجن . يبشر بالتحلل والإباحية إن هذه الأنشودة الحماسية القوية التي هشت لها أرواح المخلصين – لا ينبغي أن يفسد نغمتها داعية فاتن . يروج الإلحاد والوجودية .

ألا فلتكن هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا نقطة تحول نجدد فيها إيماننا ، ونطرد الغفلة عن قلوبنا .

ألا فلنبدأ في حياتنا صفحة جديدة ، نصوغ فيها مستقبلنا من جوهر مدنيتنا السامية الفاضلة ، وننقي فيها مجتمعنا من زيف المدنيات الدخيلة الواغلة .

لنبدأ صفحة جديدة ، نطهر فيها ألسنتنا وأقلامنا من كل مقالة

فاجرة ، وصحافتنا ومسارحنا من كل صورة داعرة ، وأخلاقنا وعوائدنا من كل عادة مانعة فاترة ، وعقولنا وقلوبنا من كل عقيدة ملحدة كافرة .

لنبدأ صفحة جديدة ، نوجه فيها شبابنا إلى حياة الشهامة والرجولة والجد والخشونة ، والإيمان والفضيلة ، وننتشل فيها أبناءنا من تيار السرف في الترف ، والغلو في المجون ، فإن أرواح شهدائنا تهتف بنا أن الأمر جد لا هزل ، وأن الساعة ساعة الفصل .

نعم . لنبدأ صفحة جديدة نعتذر فيها إلى الله من ماضي تقصيرنا ونقبل إليه أطهاراً أبراراً . لينصرنا على أنفسنا وعدونا : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » [١] .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٧ .

التحرير والتحرر والحرية

الحمد لله الذي لا فوز إلا في طاعته ، ولا عز إلا في التذلل لعظمته ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته . وأصلي وأسلم على من أرسله الله بالدين القويم والمنهج المستقيم ، رحمة وهدى للعالمين ، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد :

هذه ثلاث درجات في سلم المجد ، متصاعدة بعضها فوق بعض : التحرير ، والتحرر ، والحرية .

فالتحرير ليس هو الحرية ، وإنما هو أول خطوة في طريقها .

والتحرير حركة معالجة ومحاولة لإنقاذ المستعبدين من ذل استعبادهم.

والتحرر حركة قبول ومطاوعة وتقدم للسير في ركب المنقذين والانتفاع بإرشادهم .

أما الحرية فما هي إلا النتيجة المنطقية لازدواج هاتين المقدمتين .

لنتصور إنساناً سجيناً ، قد أوصدت عليه الأبواب ، وشدت عليه الأغلال والقيود ، ولنفرض أن الله أرسل لهذا السجين جنداً من جنود رحمته ، حطموا عنه القيود والأصفاد وفتحوا له مغاليق الأبواب ، حلم سعيد يتحقق ! نعم . ولكنه ليس السعادة كلها ، إنه فرصة للسعادة ولكنها فرصة ضائعة إذا لم يغتنمها صاحبها . نعم . ماذا يغني الأسير

أن تحطم قيوده وأغلاله إذا لم ينشط من عقاله ولم ينهض قائماً على قدميه ؟ أي فائدة في أن تذلل له العقبات فلا يجتازها ؟. وفي أن تفتح له أبواب الحياة الكريمة فلا يلجها ؟. وفي أن تنحي أعداءه من طريقه ثم لا تنفك أشباحهم تملأ خياله وتزعج منامه وأحلامه ؟ أرأيت ذلك البطل السباح حين يلقي بنفسه في اليم ، فيصارع الأمواج وتصارعه ثم يمد كلتا يديه إلى الغريق لينتشله من مخالب الموت ؟ أرأيت لو أبى الغريق أن يمد يده إلى منقذه أفلا تضيع هذه الجهود سدى ؟ .

التحرير مهمة القادة والمصلحين ، والتحرر مهمة الشعب كله أفراداً وجماعات مجاوبة لنداء مرشديه ، ومصافحة لأيدي قواده ومنقذيه .

لا بد إذن لنجاح حركة التحرير أن تقوم بإزائها حركة للتحرر . نعم ، لا بد أن تتلاقى الحركتان ، وأن يتعانق التياران ، ليتولد من بينهما ضوء الحرية ، وحركتها ، ودفؤها ، وحرارتها ، لكن هناك تحرر وتحرر .

هناك تحرر مادي نخلص به أوطاننا من عبودية الأعداء والغاصبين وهناك تحرر نفساني ، نتطهر به من العبودية لأهوائنا ، واسترقاق لشهواتنا ونزواتنا ، ولعمري أن هذه العبودية لهي شر العبوديتين ، وأن التحرر منها كفيل بأن يقودنا إلى الحرية الشاملة « بإذن الله » .

فلنحاسب إذن أنفسنا ، هل قمنا حق القيام بواجبنا ؟ .

إنه ليحزنني ويحز في قلبي أن أرى في هذه الساعة الفاصلة فرداً واحداً أو مجموعة واحدة قلّت أو كثرت ، تفكر في تعويق القافلة عن

سيرها ، أو تحاول إلقاء الأشواك في طريقهـا ، سواءٌ أكان ذلك انتقاماً لما يسمونه الكرامة الشخصية أم تأييداً لما يدعونه : المصلحة الحزبية . أما الكرامة فقد ضربت لكم الأمثال على أنه لا يضيرها أن يصبح القائد المتبوع جندياً تابعاً ، ولا أن يصبح الجندي النابغ جندياً مجهولا خاملا ، بل إن هذا التواضع قد يزيد صاحبه شرفاً ورفعة ، وأن هذا الخمول عند الناس يزيده نباهة عند الله ... وأما المصلحة الحزبية فلست أدري ماذا أقول ؟. بل أكاد والله لا أفهم ما يقال الآن ، والعدو على الأبواب !. أيرضى عاقل بأن يكون فينا شيع وأحزاب ، وهذه النار تطاردهم من خلف الأقبية والخيام ؟ أفيبقى رجال الحي من داخلها في تنازع وخصام ؟ .

إن الإنصاف كل الإنصاف ، في أن نحرم الحزبية على أنفسنا تحريماً مؤبداً في وقت السلم والرخاء وفي الكفاح والجهاد على السواء .

هذا فيما أرى هو حكم المنطق السليم ، وحكم الخلق القويم وحكم الشرع الإلهي الحكيم .

ذلك أن الحزبية قبل كل شيء ، وأد لأسمى مظاهر الحرية الفردية وهدم لأول مبادئ الاستقلال الفكري ، إنها تطلب من صاحبها أن يهدر من أجلها عقله وفهمه ، وأن يسخِّر لها لسانه وقلمه ، انتصاراً لكل قرار يصدره حزبه حقاً كان في نظره أو باطلا ، فواعجباً ! هل الذي يرضى هكذا بعبودية نفسه يكون أهلا لتحرير وطنه ؟ .

والحزبية بعد ذلك ضرب من تلك العصبيات الجاهلية التي أذهب الله عنا رجسها حين جعلنا أمة واحدة تنتصر للحق حيث كان ، ولو على لسان أعدائها ، وتقاوم الظلم حيث كان ولو في صفوف أوليائها .

ولا يقولن قائل : إن هذا من التعاون الذي لا غنى عنه لتحقيق المصالح الحيوية !.

فإن التعاون الذي يرضاه قانون الأخلاق إنما هو التعاون على البر والتقوى ، والحق والعدل ، ألا وإن الحق ليس وقفاً على شخص ولا على فئة أو طائفة . فمن كانت شيعته أحب إليه من الله وشرعته فليس من الإيمان ولا من الخلق في شيء : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ » [1] .

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

أسباب القوة المعنوية

الحمد لله الذي صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وأفضل الصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله الطيبين ، وأصحابه الأكرمين . وبعد :

قال الله تعالى وهو أحكم القائلين : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » (١) .

هذه حلقة من سلسلة الآداب والقوانين التي سنها كتاب الله تنظيماً لأساليب الحرب ، وتحديداً لأهدافها .

وللحرب نظام عرفه الإسلام ، لم يكن معروفاً في سالف الملل والدول . ولا تزال أحدث التشريعات في أرقى الأمم المتحضرة متخلفة عنه بمراحل . يعرف ذلك كل من بحث ودرس ، وقايس ووازن .

الحرب في الإسلام ليست انطلاقاً لغريزة التشفي والانتقام ، ولا انبعاثاً لشهوة التملك والاستعباد ، وإنما هي إجراء وقائي ضيق الحدود

(١) سورة الأنفال : ٤٥ — ٤٧ .

تفرضه الضرورة القصوى ، وتقوده الحكمة والعدل الشامل ، وتحوطه الرأفة والرحمة من كل جانب ، حتى أن الحروب كلها لو وصفت بأنها نكبة وبلاء على البشرية ، وأنها انحدار بالإنسان إلى مستوى الهمجية والوحشية — ما ساغ لعاقل منصف أن يصف الحروب في الإسلام إلا بما توصف به الجراحة الدقيقة والرقيقة ، حين تعمل مبضعها في أضيق رقعة من جسم المريض فتستأصل منه الجراثيم التي تفتك به استبقاءً لحياته ، واستعادة لصحته وقوته .

الحرب في الإسلام عمل إنساني نبيل ، لا يقصد به جر المغانم للمحاربين ، ولكن دفع المظالم عن المستضعفين ، كما أنه لا يبغي سلب الحريات ولا تقييدها ، بل التمكين للحريات كلها : في الأفكار والعقائد والعبادات والشعائر . وأقول في كلمة واحدة : أن الحرب في الإسلام ليست من معدن البغي والعدوان ، ولكنها من معدن التضحية بالوقوف في وجه العدوان .

لا جرم أن كان أول ما يطالعنا من الوصايا القرآنية في هذه الآية الكريمة كلمة لها مغزاها ، ولها دلالتها على تلك الأهداف البريئة .

فالقرآن لا يقول لنا : إذا لقيتم فئة فاندفعوا وانتشروا وجوسوا خلال الديار . كلا ! ولكنه يقول : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا » ومعنى هذا أن أعداء الإسلام هم الذين شأنهم أن يهاجموا الإسلام ، وأن يحاولوا استباحة حرياته ، وأن من شأن هجومهم الجارف العنيف أنه قد يزلزل

أقدام المسلمين ، وقد يضطرهم إلى الفرار من وجه عدوهم ، فأمر المؤمنين أن يقفوا ثابتي الأقدام ، رابطي الجأش ، ولو أدى ثباتهم إلى أن يجودوا بأرواحهم في سبيل مثلهم العليا : علو كلمة الله ، وعزة المؤمنين به .

ولما كان ثبات القلوب والأقدام في وقت الخطر مطلباً من أشق المطالب ، وفيه ما فيه من المغالبة للطبائع والغرائز ، كان لا بد للوصول إليه من عون إلهي تنزل به السكينة في قلوب المؤمنين ، وتثبت به أقدامهم ، ولذلك جاءت الوصية الثانية مرشدة إلى هذه الوسيلة الناجحة : « وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، كأنه قيل : إذا أنتم لم يسعفكم حولكم وقوتكم ، فالجئوا إلى حول الله وقوته . اسموا بأرواحكم إلى الأفق وارفعوا أكفكم إلى مدد السماء ، هنالك يلتقي جهد العبد وتأييد الرب . وإن حياة المؤمنين كلها تقوم على هاتين الدعامتين : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

ثم تتلاحق الوصايا والإرشادات القرآنية بعد ذلك : « وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

فالوصية الثالثة : هي طاعة الله ، ولئن كانت طاعة الله حقاً في كل موطن – إن الجهاد أحق وألزم ، فالجندي الذي يعصى الله في ميدان القتال ، مثله كمثل المحرم الذي يرتكب الإثم في جوف الحرم . أفلا

يستحي بعد ذلك أن يمد يده التي حارب بها ربه . فيطلب بها معونته ونصرته ؟ .

أما الوصيتان الرابعة والخامسة . فإحداهما طاعة الرسول – ويدخل في حكمها طاعة كل قيادة رشيدة .

والأخرى ترابط الجيش وتماسكه كتلة واحدة من وراء قائده . وهاتان الخصلتان هما ملاك النصر وقوامه ومحور النجاح ومداره .. فأما طاعة الرسول والقائد – وكذلك طاعة كل رئيس وإمام في غير معصية الله – فتلك هي روح النظام في كل جماعة ، قلّت أو كثرت .. وأما تعاون المجاهدين وتساندهم فهو معنى الوحدة في كل جسم . كبر أو صغر . وإذا كان النظام والوحدة واجبين في كل حال فهما في حالات الحرب أوجب . لأن انشقاقاً يحدث بين الرأس والأعضاء ، أو بين الأعضاء بعضهم وبعض .. إنما هو ثغرة ينفذ منها العدو في جسم الأمّة ، فيمزق وحدتها ويبدد قوتها . ويحول بينها وبين أمانيها : وذلك هو ما عبر عنه القرآن الكريم بالفشل وذهاب الريح .

على أن القرآن حين يدعونا إلى الطاعة الكلية ، وإلى التعاون الاجماعي لا يريد بذلك أن يسلبنا حرية التفكير والمعارضة ، ولا أن يحول بيننا وبين تبادل الرأي والنصيحة ، فإن الحرية والشورى في الإسلام عزيمتان لا رخصة فيهما بحال . وقاعدتان لا استثناء في حرب ولا سلم منهما . ولكنه متى استقر الرأي الغالب على خلاف ما يهوى البعض في الجزئيات

والفروع التي ليس فيها ضرر بين يصيب المجموع . وجب على كل فرد أن يصبر على الهنات والهينات . وأن يضحي بشيء من مصالحه الجزئية وينزل عن تنفيذ فكرته الشخصية . وأن يسير في الصف قدماً إلى الغاية الكبرى . فذلك هو محك إخلاص المخلصين . ومعيار النبل في مقاصد العاملين . ألا وإن أسباب النزاع والشكوى في الأزمات والملمات لهو أول أنواع الصبر الذي جاءت به الوصية السادسة في قول أحكم الحاكمين : « وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

أما الوصية السابعة والأخيرة ففيها يقول الله تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ » . فأمر المجاهدين أن يطهروا نفوسهم من شوائب الأغراض العاجلة الزائلة ، بعد أن ربط صفوفهم ، وأحكم قيادتهم ، وقوى عزائمهم ، في الآيتين السابقتين .

هذه هي الوصايا السبع ، فصل القرآن فيها أسباب القوة المعنوية في الجيش : قوة التجرد والطهر ، وقوة التجلد والصبر ، وقوة الاتحاد ، وقوة النظام ، وقوة التدين ، وقوة الإيمان والأمل ، وقوة الصلابة في العمل وسوف ينظم القرآن هذه الأسباب كلها في آية جامعة طوى فيها القوة المادية طيًّا ، ولم يبرز منها إلا حرفاً واحداً : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ »[1] .

---

(1) سورة الأنفال : ٦٠ .

فهل تنبه المسلمون إلى مغزى هذا التفاوت في درجة عناية القرآن بهاتين الناحيتين ؟ ثلاث آيات كاملة في صدر الحديث الحث على الأخذ بأسباب القوة المعنوية ، وشطر آية واحدة ، في عجز الحديث للتنبيه على القوة المادية .



دعوة الى الوفاء بحق المجاهدين

الحمد لله رب العالمين ، إله الأولين والآخرين ، وقيوم السموات والأراضين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وحجة الله على الخلائق أجمعين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

أيها المواطن الكريم :

لقد جربناك في مواطن كثيرة ، وعرفنا لك فيها مواقفك النبيلة ، عرفناك حين تستمع إلى صرخة الاستغاثة ، فإذا أنت شهامة ونجدة ، وعرفناك حين تنظر إلى قطرات الدموع البائسة ، فإذا قلبك يسيل حناناً ورحمة .

عهدناك ترق وترثي ، للبنوة اليتيمة ، وللزوجة المرملة ، وللطفولة المضيعة ، وللشيخوخة العاجزة .

عهدناك تأسى وتبتئس لمنظر الأبدان المقرورة العارية ، والأقدام المقروحة الحافية ، والأيدي المحرومة الكادحة ، ولكل ذي قلب كسير ، ولكل ذي حظ عاثر .

فهل أدلك اليوم على فئة هي أحق بعطفك ، وأولى برفدك وبرك ؟.

أولئك إخوان لك ، أولئك هم أبطالنا ، الذين هبوا للدفاع عن

أوطاننا ، واضعين أرواحهم في أكفهم ، مسترخصين الموت ثمناً لوطنهم وشرفهم : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ »(١) .

فأما الذين قضوا نحبهم في ميدان الجهاد ، فقد انهد بفقدهم ركن شديد من بناء أسرتهم ، وتغيرت من بعدهم معالم الحياة في بيوتهم وخلفوا فراغاً رهيباً في نفوس أزواجهم وأولادهم . أليس من حق هذه الأسرة الثاكلة أن تحس أن حولها أجنحة من الرحمة تحف بها ، وسواعد من العزيمة تحمل عنها بعض عبئها ؟ .

أولئك الشهداء الأبرار ، لم يضنوا على الوطن بنفوسهم ، فكيف يضن الوطن عليهم برعاية أبنائهم ؟. ألا فليذكر الغافلون والمتغافلون والكانزون والمبذرون أن ظروف الزمان طوع يديهم .

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ »(٢) .

دعني أسرد لك أمثلة مما تفعله الأمم الحية ، والدول القوية ، في تكريم أبناء شهدائها ، وإكرام العاجزين والمضرورين من جنودها .

فأبناء الشهداء في بلاد الغرب تتبناهم أوطانهم تبنياً : تحمل الدولة عنهم كل نفقات التعليم والعلاج طوال حياتهم ، ويقوم الشعب في الوقت نفسه بالترفيه عنهم ، وإدخال السرور على نفوسهم في كل مناسبة :

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ . (٢) سورة النساء : ٩ .

فترى الطلاب في مدارسهم ، والعمال في مصانعهم ، وأهل كل بيئة فيما بينهم ، يتنافسون في جمع الهدايا والمنح المتنوعة . وتقديمها في المناسبات لأبناء الشهداء من زملائهم .

أما الجنود الذين يعودون إليهم من ميدان القتال ، حاملين أوسمة من الجروح والعاهات ، فأول ما تقدمه الدولة لهم أن تتولى علاجهم بكل رفق وعناية ، ثم تسد عنهم ثمن الأجهزة الصناعية التي يعوضون بها ما فقدوه من أعضائهم، ثم توالي عطفها عليهم بعد ذلك، بالوسائل الايجابية الملموسة : فتجعل لهم حق الأفضلية في اللحاق ببعض الوظائف والأعمال التي تناسبهم ، وتمنحهم التسهيلات العظيمة في الانتفاع بطرق المواصلات فتجعل لهم حق الأسبقية في الركوب ، وتحتفظ لهم في كل مركبة بمقاعد مرقومة ، متى حضروا – ولو في أثناء الرحلة – كانوا أحق بها ممن سبق إلى الجلوس فيها ، وتضع عنهم نصف الأجرة أو ثلاثة أرباعها – تبعاً لجسامة الضرر الذي لحقهم – وفوق ذلك كله ترتب لهم معاشاً منظماً يتقاضونه مدى حياتهم ، ويئول نصفه إلى ورثتهم بعد موتهم . هذه أمثلة مما شاهدناه بأنفسنا في أوربا .

لكن ما لنا نذهب بعيداً في اقتباس الأمثال ، وبين أيدينا من الهدي النبوي والتوجيه القرآني ، ما هو أكرم مغزى وأشرف دلالة ؟ .

فلقد بلغ من عناية الرسول الكريم بأبناء الشهداء من أصحابه أنه جعل ابن القائد الشهيد يتقلد منصب القيادة العليا من بعد أبيه ، هذا

أسامة بن زيد يصبح قائداً لجيش تبوك لما استشهد أبوه في جيش مؤتة حتى أن كبار الصحابة على جلالة قدرهم ، كانوا يمشون في ركاب أسامة على حداثة سنه . فياله من تكريم ليس وراءه تكريم ! .

ولقد بلغ من مواساة الرسول لأرامل الشهداء من أصحابه أنه لم يكتف بإغداق المبرات عليهن من بعيد ، بل آواهن إلى كنفه ، ووصل حبلهن بحبله ، ومنحهن شرف عشرته الزوجية . فكان ذلك لهن نعم السلوان . ونعم الإحسان في وقت واحد .

ولقد بلغ من اهتمام القرآن المجيد بأمر المجاهدين العاجزين عن كسب أرزاقهم أنه لم يكتف بعدهم مع عامة المجاهدين ، في قانون الأصناف الثمانية الذين يساهمون في موارد الدولة ، بل اختصهم بحديث مستقل . ودعا إلى رعايتهم في نداءٍ منفرد . لا نجد أعظم منه إشادة بشمائلهم ولا أشد منه تحريضاً على الذين أحصروا في سبيل الله :

« لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »[1] .

(١) سورة البقرة : ٢٧٣ .

فهرس

الموضـــوع	الصفحة




مطابع
قطر الوطنية
ت: ٤٢٣٦٨٠ - ص.ب: ٢٥٥ - الدوحة - قطر